الملك حسين وجيرانه

قلنا من قبل: إن جلالة الملك حسين كانت كل آماله موجهة إلى إنشاء إمبراطورية عربية[1] يرأسها، وسواء كانت هذه الفكرة سهلة المنال أو مستحيلة فإنه مازال حتى آخر لحظة يدعو إليها ويدافع عنها حتى فقد ملكه في سبيل تحقيقها، ونقول هنا أيضاً، إن أنجاله كانوا يوافقونه على هذه الفكرة ويسعون إليها بالرغم من أن الحلفاء من أول الأمر عارضوا في لقب ملك العرب لأنه سيثير شكوك حكام العرب الآخرين.

لقد كان جلالة الملك فيصل من المعتقدين بهذه الفكرة، فقد كتب إلى والده في ٢٤ نوفمبر سنة ١٩١٩ يخبره بمساعيه في فرنسا وتمنى لو يرفع العلم العربي على كافة أنحاء الجزيرة كاليمن وعسير وغيرهما، وإعلان انضمامهم له لكي يبلغ ذلك للدول، ويتخلصون من كلمة ملك الحجاز ويقولون ملك العرب، والأمير عبدا في كتابه المؤرخ ٢٨ إبريل سنة ١٩٢٠ إلى نائب الملك بمصر الذي يطالب فيه الحكومة البريطانية بالإمبراطورية العربية التي وعدتهم بإنشائها، يقول في آخره :

وخلاصة المقال أن جلالته يبحث عن أمرين:

الأول - عن المسألة العربية الكبرى .

الثاني - في المسائل البدوية لمشايخ العربان الذين كانت لهم صلات بالحكومة البريطانية منذ الحكم العثماني على سواحل خليج فارس والمحيط الهندي، كابن الصباح وابن سعود وغيرهما، ولا سيما الأخير الذي يدعى أن العهد البريطاني الذي بيده يسوغ له أن يفعل ما فعله من الحركات المعلومة التي شرع فيها إبان الحرب .

(١) راجع في الذيل مشروع الوحدة العربية لاذي وضعه الملك حسين .

ولقد كـتب الملك حسين، بعد وفـاة السيد محـمد الإدريسي، كتـاباً لرؤساء قبائل عسـير يحبب إليهم الانضمام إلى الحـجاز، ولكن هذه المحاولة لم تنجح، كمـا حاول الاتفاق مع الإمام يـحيى. أما ابن سعـود فالخصـومة بينه وبين الملك حسين كانت أشد وأعنف ولذا فإنا سنوفيها حقها من التفصيل.

عبدالعزيز بن سعود والملك حسين

إن النزاع بين الأشراف وآل سـعود يرجع عـهده إلى حركـة الإصلاح الديني التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب بمساعدة آل سعود، فهذه الحركة صحبها حركة فتح وبسط نفوذ في سائر جزيرة العرب، وأصبحت الحجاز مهددة في ذلك الوقت، ومكة والمدينة كانتا كالقاهرة من حـيث المركز العلمي، كما أن الأشراف كانوا يرون في أنفسهم الامتياز بالنسب وحكم البلاد المقدسة، وكان شأنهم كشأن حكام جزيرة العرب من حـيث الاتصال بالبادية والاشتغـال بالغزو أيضاً ، فكان من الطبيعي أن يقوم بينهم وبين آل سعود ما وقع من الخلاف:

أولاً- النزاع على السـيـادة. فـالأشراف يرون أن مـركـزهم الديني بالقـرابة وبإمارة مكة جعلهم في مركز لا يصح أن يقـارن بمركز أي أمير آخر، والنجديون طبعاً يخالفونهم في هذا.

وفي سنة ١١٨٥هـ أرسل الأمـيـر عـبدالعـزيز بن سـعـود والشـيخ محـمـد عبـدالوهاب هدايا إلى أمير مكة الشريـف أحمد بن سعـيد مع الشيخ عبـدالعزيز الحصيني الذي أوفد إلى مكة بطلب من الشريف ليـشرح ما عليه أهل نجد، وبيان وجهة نظـرهم الجديدة. وقد وصل المذكور إلى مكة وتبـاحث مع علماء مكة في بعض المسـائل. ويقول ابن غنام المؤرخ الـنجدي: إنهم أحـضروا كـتب الحنابلة فاقتنعوا بأن ما عليه أهل نجد من هدم القباب ومنع دعوة الصالحين وطلب الشفاعة

منهم حق، وأن هذا مذهب الإمام الأعظم، وأن الشيخ عبدالعزيز انصرف مبجلاً مكرماً.

وفي سنة ١٢٠٤هـ أوفد الأمير عبدالعزيز والشيخ محمد بن عبد الوهاب إلى الشريف غالب الشيخ عبد العزيز الحصيني مرة أخرى إلى مكة حسب رغبة الشريف غالب، ولكن علماء مكة في هذه المرة لم يقبلوا مناظرة الشيخ عبدالعزيز، ويقول ابن غنام: إن الشريف غالباً قبل دعوة أهل نجد، وقد يكون الشريف غالب تظاهر بذلك ليخفي ما كان يدبره سراً من غزو نجد والقضاء على الدعوة الجديدة في عقر دارها، إذ ليس من المحتمل أن يكون شريف مكة أراد أن يخدع أمير نجد حتى ينصرف لتسكين الأحوال الداخلية في مكة لاسيما مؤامرات بني عمه ضده، فإن الدعوة الدينية وقوة أمير نجد لم تبلغ من القوة التي يخشى على مكة منها.

ويقول السيد دحلان : إن أمير نجد قبل اتساع أمره أراد الحج إلى البيت الحرام في أيام الشريف مسعود بن سعيد فأرسل يستأذن في الحج، وكان أرسل قبل ذلك ثلاثين من علمائهم، وطلب من الشريف مسعود أن يناظر علماء الحرمين العلماء النجديين، فأمر الشريف مسعود قاضي الشرع أن يكتب حجة بكفرهم وأمر بسجنهم ووضعهم في السلاسل والأغلال، وفي أيام الشريف مساعد أخي الشريف مسعود أرسل يستأذن في الحج، فأبى وامتنع من الإذن له، ولما تقلد الأمر الشريف أحمد ابن سعيد أرسل أمير الدرعية جماعة من علماء نجد للمناظرة مع علماء الحرمين، فأبى الشريف بعد ذلك أن يأذن لهم بسبب الاختلاف الواقع بين الفريقين، وفي أيام الشريف سرور أرسل إليه يستأذن في الحج، فأجابه إن أردت الوصول فإني آخذ منك مثل ما آخذ من الأعجام، وآخذ منك مائة من الجياد فلم يقبل. وفي أيام الشريف غالب أرسل أيضاً يستأذنه في الحج، فمنعه

وتهدده بالزحف عليه.

ومهما كان الفرق بين رواية النجديين والسيد دحلان، فمما لاشك فيه أن أشراف الحجاز كانوا يعتبرون أنفسهم ملاك البيت، بيمحون لمن يريدون، ويمنعون من يريدون، ولا شك أنهم كانوا يضعون العراقيل في سبيل الحجاج النجديين بسبب الدعوة الدينية التي قامت في نجد .

وفي سنة ١٢٠٥هـ جهز الشريف غالب حملة كبيرة لغزو نجد، والقضاء على الدعوة الدينية واجتثاث أصلها، وثل عرش آل سعود، وسار الشريف بنفسه إلى الشَّعْرا، ولكن هذه الحملة وما تبعها من حملات رجعت تجر وراءها الخيبة والفشل، كما كانت فاتحة شر بين آل سعود والأشراف، فإن ال سعود لم يقبلوا تحكم الأشراف في البيت الحرام ومنعهم من الحج، كما رأوا في الأشراف قوة أخرى لاتزال تهددهم من وقت لآخر، وهي موئل للرجعية وللتعصب للقبور، ولذا فإنهم بعد أن استتب لهم الأمر في الجزيرة وقضوا على الإمارات الصغيرة واحدة تلو الأخرى، ولم يبق لهم منازع في نجد وجهوا نظرهم شطر الحجاز، ففتحوه وحكموه من سنة ١٢١٩هـ إلى سنة ١٢٢٧هـ، ولولا الأغلاط التي ارتكبوها ضد الأتراك والمصريين ما اعترض حكمهم أحد في الحجاز، فإنهم يفضلون الأشراف بقوتهم وقدرتهم على بسط الأمن والضرب على أيدي قطاع الطرق والطامعين في الحجاج من البدو.

وفي سنة ١٢٦٣هـ تولى الشريف محمد بن عون جد الشريف حسين قيادة حملة تركية للقضاء على سلطة الإمام فيصل جد الملك عبدالعزيز، فوصلت هذه الحملة إلى القصيم، غير أن الإمام الداهية البعيد النظر أحبط هذه المؤامرة بالاتفاق مع الأتراك على أن يكون مستقلا في بلاده خاضعاً لسيادتهم، ويدفع لهم مقابل

ذلك مبلغاً سنوياً قدره عشرة الاف ريال. ولقد كنا نظن أن مرور الأيام طوت صحائف العداوة والحقد بين هاتين العائلتين، ولكن الزمن بدد هذا لاظن، وظهر أن الأشراف لا تزال قلوبهم ملأى بالحقد على ال سعود بالرغم من أن آل سعود لم يكن لهم قبل ربع قرن من الزمن من القوة والنفوذ ما يؤبه له، ولقد سمعت من كثير من النجديين لا سيمنا من كانوا في بطانة آل رشيد، وقد أكد هذه الرواية الملك عبدالعزيز أن الشريف علياً باشا أمير مكة الأسبق كانت باكورة أعماله في إمارة مكة بعد الشريف عون إهداءه أسلحة ورماحاً إلى الأمير عبدالعزيز الرشيد خصم الأمير عبدالعزيز آل سعود، والقارئ يعرف أثر هذه الهدية في نفس الأمير عبدالعزيز آل سعود (الملك عبدالعزيز الآن).

ولما تولى الشريف حسين إمارة مكة بعد الدستور العثماني ظننا أن عهداً جديداً سيكون اللبلاد العربية، لزن الشريف ذاق من ظلم الأتراك بإبعادهم له من مكة كما ذاق طعم الحرية بعد عصر الحرية، ولكنه أبى إلا أن يكون آلة في يد الأتراك لضرب العرب، فقد سار هو وأولاده في الحملة التي سيرها الأتراك لضرب الإدريسي في عسير، وهذا له ليبرهن للأتراك إخلاصه التام. أما الأمير عبدالعزيز بن سعود فقد كان من مشاكله في نجد ما يغنيه عن خلق مشاكل جديدة بينه وبين الشريف حسين، ولكن الشريف حسيناً بحجة المطالبة بعُتَيْبة خرج منالحجاز حتى الشَّعْرا، أوّل قرى نجد، واعتقل سعد بن عبدالرحمن شقيق أمير نجد كرهينة، ولكن أمير نجد تفاهم مع الشريف حسين وجاراه في أغراضه وأعلن أنه لم يكن من منصلحته إلا إخلاصه للدولة التركية وللأشراف، فإن النزاع بينه وبين أبناء عمه ، وبينه وبين خصمه الألد ابن الرشيد كان على أشده، بل إن مصلحته تقضي بخطب ود شريف مكة ومحاسنته، وهذا ماكان.

وبعد هذا التفاهم أرسل أمير نجد في رمضان سنة ١٣٢٨ أحد أبناء عمه إلى مكة مع هدية من جياد الخيل، وقال في كتابه[١] : «إننا حاسبون[٢] أنفسنا من خواصكم وإلاّ هديتنا رؤوسنا وما تحت أيينا، وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم وإلا أمركم علينا تام على كل حال، وما تفعلون معنا وتُحُطون أنظاركم علينا، تجدون إن شاء ا مضاعفاً بالخدمات والسمع والطاعة» .

وفي كتاب آخر مؤرخ ٢٢ ربيع أول سنة ١٣٣٠يقول : «اطلعنا على تحرير عطوفتكم لحضرة سيدي الوالد المحرر في ٢١ صفر سنة ١٣٣٠ه، وقد سرنا سلامتكم وبما أشرتم من اجتناب كل ما يخالف مراضى سماحتكم العادلة، فا المطلع أنني أسعى إليها، وإني حريص لاستجلاب مراضيكم لأن من أخص آمالنا وأقصى مرامنا رضاكم، وبالعكس نحن محرومون من التفاتكم حتى نال منا الأشقياء المفسدون الذين لا غاية لهم إلا النهب والسلب، وإقلاق الراحة وإحداث الفتن، فاعقدوا أننا لم نخالف مراضيكم ولم نقصر في إبراز الصداقة والمحبة والمحسوبية لحضراتكم في جميع مساعينا، ونرجو من لطفكم بأن لاتكوناو من فكر من جهتنا أبداً ، وألا تخرجوا من دائرة المحبة والصداقة، ولنا أمل با أن تكونوا واسط قوية بيننا وبين متبوعنا الحكومة الشورية، وتعرضوا إخلاصنا وخدماتنا الصادرة في مرضاة دولتنا الدستورية، وتروني حاضراً استعداداً مع عموم أهل نجد لكل ما تكلفوننا وتأمروننا به، أفدى السدة العثمانية بعزيز روحي» .

فابن السعود في كتبه كان يعترف للأشراف بما لهم من المنزلة والرياسة، وذلك

(١) راجع نص الكتب التي أرسلها الأمير عبدالعزيز إلى الشريف حسين في الذيل.
(٢) هذه لغة الكتب ننشرها كما هي طبق الأصل.

على شرط أن لا يتدخل الأشراف في الشئون النجدية المحضة.

بعد اشتعال نار الحرب أو جس الأتراك بشيء مما سحاوله شريف مكة، فعرضوا على أمير نجد إمارة مكة ، غير أن ابن السعود رفض هذا العرض، لأنه سيجر عليه مشاكل لا قبل له بها، ولأن قبول هذا العرض سيجلعه في موقف عداء مع الإنجليز، وابن سعود يحرص على مصلحتهم ومصادقتهم.

وفي سنة ١٩١٦م خلع الشريف حسين نير الأتراك، وأعلن الثورة العربية واستقلال البلاد العربية وانفصالها نهائئاً من الحكم التركي .

رحب أمير نجد بالحركة العربية، وتبادل هو وشريف مكة الكتب الودية والهدايا مما جعلنا نعتقد أن العرب سيدخلون في عصر جديد من التفاهم والاتحاد.

غير أن إعلان الشريف حسين نفسه ملكا باسم ملك العرب، أثار شكوك أمير نجد، فاحتج، فلم يسع الإنجليز إلا الاعتراض على لقب ملك العرب.

لقد كان من آثار تجديد الدعوة الدينية في نجد دخول العشائر المتاخمة للحجاز من بيع وعتيبة في دين ا ، تلك العشائر التي اشتركت مع الملك حسين في إعلان الثورة وكان لها أثر يذكر في فتح الطائف وجدة، والتغلب على الحاميات التركية، فكان من آثار ذلك ازدياء الجفاء بين الملك حسين والأمير ابن سعود بالرغم من سعي الحكومة البريطانية للتوفيق بين الفريقين، فإن هذا السعي لم يثمر الثمرة المطلوبة وإن قلل حدة الخلاف . لقد دخل كثير من العشائر التي كانت موالية للملك حسين في الدعوة الدينية ، وأصبحوا بمقتضى هذه الدعوة يرون أن ملك الحجاز ليس من حماة الدين، بل بالعكس حامي البدع، وأخذت زيارة شيوخ القبائل لأمير نجد تثير سخط الملك حسين، واعتبر هذا خيانة عظمى له.

أرسل الملك حسين بعض قوات تأديبية لتأديب أولئك الخارجين وأدبهم بالفعل، فعد ابن السعود هذا التهديد موجهاً إليه؛ اختل الأمن على حدود الحجاز بالغزو المستمر، ووصلت الكتب التي يرسلها أمير نجد إلى شيوخ القبائل يدعوهم إلى التمسك بأهداب الدين، وأن أهل نجد لا يقصدون إلا إعلاء كلمة ا . فثارت ثائرة الشريف حسين على علي ابن سعود، ومَنِ سعود هذا؟ أليس هو بأمير صغير؟ كيف يتطاول على مقامنا ويتجاوز حدوده؟ كانت نفس الملك حسين تجيش بهذه الكلمات طبعاً، إذن يجب تأديبه أو إقصاؤه عن ملكه حتى يقف غيره عند حده.

قام الملك حسين بالتجهيزات العسكرية في الطائف وتُرْب وجهز كل قواته بالمدافع والرشاشات، إن عشائر الخُرْمَة لا تحتاج إلى كل هذا؛ فإلى أين هذه القوات؟ إلى الإحاء أي إلى الساحل الشرقي للجزيرة، هذا كان يقوله قواد الملك حسين، وماذ في نجد؟ ألم تكن لكم عظة بمن حاول هذه المحاولات قَبلكم من الأشراف والأتراك، ألم تبتلعهم رمال نجد؟ إلى نجد! نحن لا نكلفكم مؤونة الذهباب إليها، إن دون نجد أهلها ورجالها. هذا جواب أمير نجد عبدالعزيز بن سعود.

سار أمير نجد بجنوده حتى أصبح قريباً من تربة، والجند الشرفي لا يزال فيها، غير أن عُتَيبة وبعضاً من سبيع أغنوا ابن السعود مؤونة الوصول إلى تربة، فصبحوا جيش الشريف على غرة، وانقضوا عليه من كل جانب، وقتلوا كل من أوقعه القدر فيي أيديهم، والسعيد من وجد سبيلا للفرار ، ولم يجد هذا السبيل إلا نفر قليل بينهم القائد العام الأمير عبدا أمير شرق الأردن (ملك الأردن) ويقول الملك عبدا في مذكراته صحيفة ١٥٩ : إن الجيش النجدي يتجاوز الخمسة والعشرين ألفا والقوى التي معي من حيث قوة النار لا بأس بها، وأما

العدد فكان الجند النظامي خمسمـائة، والجند من أهل الحجاز والأرهاط المكتوبة ثمانمائة وخمسون في صفنـا ولم ينج النظاميين إلا ثلاثة ضباط والذين سلموا من القوة العربيـة الحجازية مائة وخمـسون رجلا. ويقول أن قتلى أهل نجـد قد بلغوا السبعة آلاف. كما يعترف بأن نجاته ف يهـذه المعركة كانت معجزة. هذا ما يقرره الملك عبـدا . أما مترجم المذكـرات لميب چريز Philip Greves فإنه يعلق على تقرير الملك عبـدا بأن جيش الملك حسين قد اسـتؤصل وأنه لولا إنذار الحكومة البريطانية لاستطاع جيش ابن السعود احتلال الطائف ومكة.

هل يتقـدم ابن السعود إلى الأمام ؟ لقـد وصل إلى تربة وأقام حولهـا يحصي الغنائم ويقسـم الأسلاب، وليس هنالك ما يمنع من دخـوله الطائف هو عل بضع ساعات منهـا، بل لاشيء يمنعه من دخول مكة إذا أسرع إليهـا، فإن القوات التي يعتمـد عليها الملك قد فنيت في وادي تربة؛ فزع الشـريف حسين إلى الإنجليز أن انظروا إلى ابن السعود يريد الاستيلاء عـلى الحجاز ، والإنجليز لايمكن أن يتركوا حليفهم فريسة لأمير نجد؛ أيدخل الأمير فيصل دمشق ليؤسس دولة عربية هنالك ويخرج والده من الحجاز، إن هذا غير معقول طبعاً .

أرسلت الحكومـة البريـطانية إنذاراً لأميـر نجد في ٤ يونيـو سنة ١٩١٩- ٥ رمضـان سنة ١٣٣٧هـ. وحذرته مـغبة تقـدمه في الأراضي الحجـازية، لم يسع الأمير عـبدالعزيز إلاّ الرجوع إلـى نجد لزنه وهو الرجل العاقل البعـيد النظر لم ير من مصلحته الدخول في مخاصمة مع الحكومة البريطانية.

ولقد توترت العـلائق بين الحكومة البريطانيـة وبين ابن سعود لجـهل الحكومة البريطانية بما كان يجري بين الفريقين ولعـدم وقوفها على جلية الأمر، أضف إلى ذلك أن الحكومة البريطانية، وقد خرجت من الحرب ظافرة، كانت متشبعة بفكرة

لورنس المتشيع للأشـراف المعجب بهم، وقد حارب معـهم جنباً إلى جنب، وقد كادت الحكومـة البريطانية تقطع الإعانـة المالية التي كادت ترسلها إلى ابن سـعود لولا ما أرسله فلبى من التقـارير إلى ولسون (نائب المندوب الامي بالعراق) الذي شرح موقف ابن سـعود لحكومته وتحدِّى الأشراف لابن سعـود وأن ابن سعود لم يكن إلا مدافعاً عن نفسه.

فرأت الحكومـة البريطانية أن تسـعى بين الفريقين لإزالة مـا بينهما من جـفاء فطلبت منهما أن يتبادلا كتب مودة لعل هذه الوسيلة تكون سبباً في حلول الصفاء محل الجفـاء . ولكن الملك حسين ليس سهل القياد، فـإنه لم يصغ لنصح الكومة البريطانية فلم يرسل كتابا ورفض استـلام كتاب أمير نجد. فكتب إليه نائب الملك بمصر كتابا مطولا بتاريخ ٥ نوفمبر جاء فيه:

« إن حكومة جلالة ملك بـريطانيا نظراً إلى عنايتها بمصـالح العرب الجوهرية تقف إزاء اشتـعال الحرب في جزيرة العـرب موقف القلق المضطرب، خصـوصاً لكون حدوث ذلك يؤثر على القرارات السياسية التي سيتفق عليها قريباً.

ثم إنه لايجب أن يخـامـر جلالتـكم أقل ريب في وفـاء الحكومة البـريطانيـة نحوكم، التي يتحتم عليها عدم اتخاذ جانب ابن سعود أو غيره فيما يضر بمصالح جـلالتكم، غيـر أن جـلالتكم لاتجهلـون شروط المعـاهدة الحـالية بين الحكومـة البريطانيـة وابن سعود الضامنـة حقوقه داخل حـدود بلاده، إلا أنها بلَّغته بصـفة رسمية أنها تنظر إلى كل عمل يأتي به خارج بلاده بعين السخط، بل رفضت طلبه زيادة الذخائر والمـهمات الحـربية ، زد على هذا أنهـا طلبت منه إيقاف الحـركات العدائـية ضد ابن الرشـيد صـديق الأتراك التي كان قـد شرع بهـا بناء على طلب الحكومة البريطانية نفسها.

إنني لا أذكر هذا إلا لغرض إيقاف جلالتكم على حقيقة الحال، ولكي تقدروا حق التقدير البواعث التي حملت الحكومة البريطانية على الإشارة لجلالتكم بالوقوف عند حد معلوم فيما يتعلق بمسألة الخرمة وغيرها من شئون القبائل، ونظراً إلى ما سبق ذكره، وما تكرر وروده في كتب جلالتكم يصعب علي تصديق الخبر الذي جاءني وهو أن جلالتكم رغبتم في قطع العلاقات الودية مع ابن سعود مما يكني عنه بإرجاعكم رسوله رفضكم كتابه.

إنني أرجوكم أعظم الرجاء أن تجتهدوا لمنع كل البواعث الجوهرية التي تؤدي إلى سوء التفاهم مع الأمير المشار إليه بشأن سياستكم نحوه، فإنه وإن كان أقل درجة من جلالتكم وأضعف موارد، لا ينكر أنه ذو تأثير وأهمية في السياسة العربية».

ساد السكون الحدود الحجازية بقية سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٠ تقريباً، وتبودلت الكتب الودية بين الفريقين، فالأمير عبدا في كتاب له مؤرخ ٢٧ من ذي الحجة ١٣٣٨ - ١٠ أغسطس سنة ١٩٢٠ يقول :

«إنني قبل كل شيء أحمد ا الذي ألهمكم وأفهمكم على إركاب الأخ أحمد إلى هذا الجناب، لحسم ماهو واقع من الأمور المحزنة والحوادث المفجعة التي لا سبب لها سوى غلطات متتابعة، إذ أنني على يقين من أن والدي وشخصكم لا تريدون لبعض مايريده العدو لعدوه، وأن لكل منكم متسعاً فيما هو لآبائه، كما أن فطنتكم الذاتية وحنكتكم السياسية لاشك أنها أوحت إليكم كما هي أوحت إلينا مفروضية تغير الشكل الحاضر ولزوم التفاهم في كل وارد وصادر».

إن تبادل الكتب بين الفريقين لم يمنع من وقوع حوادث بعد ذلك على الحدود، وهذا بالطبع للاختلاف في النزاعات الدينية بين القبائل الخاضعة

للحجاز والقبائل الخاضعة لنجد.

ولذا فإن الملك حسيناً رأى أن يمنع النجديين من الحج في عام ١٣٣٨ - ١٩٢١. غير أن الحكومة البريطانية أغلظت الكتابة لابن سعود لكي يعمل على إسكان الحالة في حدود الحجاز، وتداخلت مع الملك حسين للإذن للنجديين بالحج أسوة بسائر المسلمين.

وفي سنة ١٣٤٠هـ -١٩٢٢م، أذن للنجديين أن يحجوا، فحجوا تحت إمارة مساعد ابن سويلم، وقد عثرنا على كتاب من سلطان نجد (كان الأمير عبدالعزيز أعلن نفسه سلطاناً على نجد سنة ١٩٢١) للأمير على أكبر أنجال الملك حسين يقول فيه :

« لما رأيت تفضل صاحب الجلالة الوالد المعظم ببذل عنايته بالرخصة وبالسماح لأهالي نجد لأداء فريضة الحج حيث برهن على حسن عواطفهوإظهار فضيلته، أحببنا أن نرخص لبعض رعايانا لزيارة بيت ا الحرام بصحبة خادمكم مساعد بن سويلم، فاتخذت هذه خير وسيلة وأعظم فرصة لأهدي حضرتكم جزيل السلام ولأعبر لسموكم عن عظيم اشتياقي وخالص نواياي لتجديد عهود الصداقة، وتمكين الصلات الحسنة والمناسبات الودية المشتركة التي تربط القطرين الإسلاميين غير ملتفتين إلى ما قدر ا رغم إرادتنا أن يقع فيما مضى بين الطرفين من الحوادث التي طالما أوجبت لتأسفاتي وكدري. . .الخ».

غير أن الخلاف قد عاد مرة أخرى بطريقة أشد، فإن الملك حسيناً أبى أن يسمح للحجاج النجديين مرة أخرى، والحكومة البريطانية تتوسط بين الجانبين فيتهمها الملك حسين بمحاباة ابن السعود وترجيحها إياه.

إن الواقف على المراسلات التي كانت تدور بين الملك حسين وبين الحكومة

البريطانيـة(١) في هذا الموضوع لا يرى مـوقفاً أشـرف من موقفـها للتـوفيق بين الجارَيْن المسلمين العربيين، للسماح بفتح أبواب الحجاز للحجاج النجديين أسوة بسائر المـسلمين، وإزالة أسبـاب النزاع والخصام بين الـفريقين كي يسـود السلام جزيرة العرب.

ولقد كان جـلالة الملك حسين مرة يرفض السمـاح للحجاج النجديين خـشية إخلالهم بالأمن، وتارة يتنازل بقبول عدد قـليل منهم، كما أنه في بعض الأحيان يشترط قدومهم بالبحر كسائر الحجاج.

وفي ٢ ديسـمبـر سنة ١٩٢٢ كتب سلطان نجـد إلى المندوب السامي بالـعراق يخبره أن ليس في إمكانه تحديد عدد الحجاج النجديين لعام ١٩٢٣. كما فعل في العام السابق، ولم تر الحكومـة البريطانية سبباً مشـروعاً لتغيير مـوقفه، فأرسلت الحكومة البريطانيـة التعليمات لممثـلها بجدة، فكتب بدوره للحكومة الهاشـمية بتاريخ ٢٨ يناير يخـبرها بموقف سلطان نجد ورأى الحكومـة البريطانية، واقـترح الدخول في مفاوضة مع سلطان نجد لعقـد معاهدة على نسق المعاهدة التي عقدت حديثاً بين سلطان نجد والملك فيصل.

وفي ٢٨ يناير سنة ١٩٢٣ كـتب سلطان نجد للحكومة البـريطانية يخـبرها أن عدداً كبيراً من رعاياه يرغبـون في أداء فريضة الحج، وأنه لا يقدر أن يحدد العدد كما فعل في حج سنة ١٩٢٢، وأن الحكومـة البريطانية لا ترى أي مانع لفت باب الحج لكل من يبـريده من النجـديين مادام الحج في العـام الماضي كـان على خيـر مايرام، وقد اقـترحت الحكومة البريطانية بمـناسبة الوقت للمفاوضـة في معاهدة حدود مع ابن سعـود على طريقة المعاهدة التي تمت حديثـاً بين سلطان نجد والملك

(١) اخترنا نشر كتابين في هذا الموضوع في الذيل.

فيصل، فكان جواب الملك حسين أن لا يقبل حجهم في هذه السنة إلا إذا أخلو الجوف وسائر الجهات التي اغتصبوها من البلاد كَرَانْيَة، وبيشة، وتربة، ونواحي خيبر وما شا كلها. وأما المعاهدة مع ابن سعود على طريقة معاهدته مع العراق، فإن هذا البحث مفروغ منه لأننا كلفناه المرة بعد الأخرى كا هو معلومكم بأننا مستعدون لذلك على أساس الشروط التي أخبرناكم بها،وهي إما أن يعود ابن سعود إلى ما كان عليه في زمن الآباء والأجداد من جهتنا وجهته، وإما أن يأتي ويستلم البلاد جميعها لأن الأساس المقصود هو خدمة البلاد.

وما زالت الحكومة البريطانية جادة في تقريب مسافة الخلف بين سلطان نجد وملك الحجاز حتى هيأت الجو لمؤتمر الكويت، فجمعت بين جبهة الأشراف:- الحجاز. العراق. شرق الأردن - وبين سلطان نجد في يناير سنة ١٩٢٣، ولكن هذا المؤتمر قد فشل. وقد أحسَّ الملك حسين بما بينه وبين البريطانيين من الخلف، فكتب وزير خارجيته كتاباً إلى رئيس المعتمدين البريطانيين في شرق الأردن يظهر فيه رغبته في التقارب بين البلدين، غير أن فشل مؤتمر الكويت وتتابع الحوادث في الحجاز التي انتهت بسقوط الملك حسين حالت دون نجاح هذه الرغبة الأخيرة.

سياسة الملك حسين الداخلية

لا نريد أن نأتي هنا على تاريخ الأشراف ونفوذهم في الحجاز، فقد أوردنا فصلا خاصاً في هذا الموضوع، كما أنا أوردنا أشياء كثيرة في ثنايا الكتاب تبين ما كان لهم من النفوذ والسلطان في الحجاز، لا سيما إذا كان شريف مكة على اتفاق تام مع الوالي.

عندما أعلن الشريف حسين الثورة على الأتراك ظننا أن البلاد العربية ستدخل في دور جديد من الإصلاح والتقدم، وكاد هذا الظن يكون يقيناً عندما رأينا كثيراً من شبان العرب وهم القائمون أولا بالحركة العربية في تركيا التفوا حوله وأسندت إلى بعضهم إدارة بعض الأعمال.

لقد قام الملك حسين في أول سنة من القيام بالحركة بتأسيس الوزارات ومجلس الأعيان، كما أنه هم بفتح بعض المدارس في مكة والمدينة.

ولكن يظهر أن جلالة الملك حسين وما يغلب عليه من سوء الظن وسرعة تأثره بالوشايات جعل بعض هؤلا ءالشبان يفضل ترك العمل بالمرة، وبعضهم يفضل الاشتغال مع أولاده، لاسيما الأمير فيصل والأمير عبدا ، لأن العمل مع الملك حسين لايجدي ولايثمر، على أنه ماكادت الحرب تضع أوزارها حتى رأينا ميدان الحجاز قد خلا من الشبان العرب النزيهين، ولم نر حول الملك حسين إلا أولئك الضعفاء الذين لايهمهم إلا ضمان مصالحهم الشخصية، غرقت السفينة أو سلمت.

إن بلاد الحجاز في حالتها الحاضرة أشبه بحالة البلاد الإسلامية الأخرى قبل مائتي سنة، ولكن الزمن الآن قد تغير كثيراً، والحجاج يأتون من كل ناحية ولايجدون في الحجاز التقدم الذ يحدث في بلادهم، ولايجدون طرقاً ولا

وسائل مواصلات كالتي يشاهدونها في بلادهم، وكذلك وسائل الإنارة والشرب والصحة والتعليم وغير ذلك من وسائل العمران الضرورية.

والحجاز وإن كان من البلادد الفقيرة التي لا تكفي مواردها للقيام بهذه الإصلاحات إلا أنه بمركزه الديني يجد شتى المساعدات من الأمراء والمسلمين ومن أغنياء المسلمين اذا رأوا عزماً صادقاً من الحكومة المهيمنة على شؤونه.

لقد كنا نظن أن الملك حسيناً بحكم ماله من النسب الكريم والمنزلة الرفيعة في نفوس المسلمين، وأنه - وهو الرجل الذي وقف على وسائل الحضارة في الآستانة - سيضرب للناس أفضل الأمثلة بمقدرة العرب على الإدارة والتنظيم، ولكن الأيام خيبت هذا الظن، فالملك حسين في هذه الناحية كان كغيره من الأشراف لايفهم مايجري في العالم، كما أنه لم يقم بالواجب المنتظر منه للبلاد المقدسة، ولقد حاولت الحكومة البريطانية أن تساعد الملك حسيناً على تنظيم مالية الحجاز في سنة ١٩١٩ - سنة ١٩٢٠ لأنها في ذلك الوقت كانت لا تزال تدفع إعانة للملك حسين - وميزانية الدولة هي أساس الإدارة في المملكة فلم توفق، حاولت كذلك إصلاح إدارة الكرنتينة والصحة وهي أهم شيء في الحجاز لأنها هي الركن الأول لسلامة الحج فلم توفق أيضاً، حاولت أيضاً أن تساعد الحجاز ببعثات طبية ترسل من الهند لأن إدارة الصحة في الحجاز غير منظمة من جهة، ولأنه في زمن الحج حيث يكثر الوافدون لاتكفي الاحتياطات التي تقوم بها حكومة الحجاز ولا عدد الأطباء الموظفين، وهذه مهمة إنسانية لاغضاضة فيها على حكومة الحجاز، ولكن الملك حسيناً رفض هذا الطلب من بريطانيا كما رفضه من مصر أيضاً، معتقداً أن ذلك يحط من شأن حكومته ويمس استقلاله، ولم يجد توسط الأمير فيصل (المرحوم الملك فيصل) في هذه الأمور ولاغيره.

صورة خريطة

obeikandl.com

صورة خريطة

obeikandl.com

أما السياسة المالية فلم تكن تمتاز عما كان معروفاً في أيام غيره من الأشراف (العبد وما ملكت يداه لسيده).

فالضرائب تؤخذ بغير انتظام حسب إرادة الملك ويرهق بها الناس. وهكذا يخرج الملك حسين من الحجاز ولا يترك أثراً من آثار الإصلاح، كما أنه لم يستطع أن يبسط الأمن في جميع أنحاء المملكة؛ فما عدا المدن الحجازية كانت سيوف العضائر مصلتة على رقاب الحجاج، لا يتركونهم يسافرون إلى المدينة إلا بعد أن يأخذوا منهم ما يفرضونه عليهم من النقود. وفي سنة ١٩٢٤ رجعت قوافل الحجاج من «رابغ» لأن العشائر رفضوا أن يدفعوا ثمانية جنيهات للملك حسين من أربعة عشر، وهي الأجرة المفروضة للجمل، وبالطبع قد ضاع ما دفعه الحجاج بين الملك حسين وبين العشائر.

على أنه مهما كانت أغلاط الملك حسين السياسية فإن الرجل كان أفضل الأشراف المتأخرين وأقلهم ظلماً، وأعلاهم جميعاً نفساً وأعظمهم شخصية، فهو بلا شك أفضل من الشريف عون الذي ضج من ظلمه كل من زار أو سكن الحجاز، وأفضل من ابن عمه الشريف علي في كثير من الصفات الشخصية ويجب هنا أن لا نغمط الرجل حقه؛ فهو أول عربي جعل للبلاد العربية شخصية دولية وشأناً لا ينكر في أوروبا.

والآن وقد وصلنا إلى الصراع بين العاهلين الكبيرين في الجزيرة العربية: الملك حسين والملك عبدالعزيز بن سعود، وانتصار أحدهما على الآخر بعد معارك حربية وسياسية دامت سبعة عشر عاماً، نرى من الواجب علينا أن نأتي بخلاصة تاريخية وافية لحياة الملك عبدالعزيز، والدور الذي لعبه في السياسة العربية ولا سيما بعد استيلائه على الحجاز.

ويجمل بنا قبل أن نأتي على حياة الملك عبـدالعزيز أن نذكر فصلاً تاريخياً عن عائلة ال سـعود ودورهم التاريخي، وأثرهم في الانقـلاب العظيم الذي كان في القرن الثامن عشر لقرب الشبه بين ما تم في عهد آل سعود وعبدالعزيز الحالي.

obeikandl.com

آل سعود

آل سعود من قبيلة عنزة من فخذ المساليخ، ويوجد هذا الفخذ الآن قرب حمص، وعنزة من أكثر العشائر العربية أفخاذاً وبطوناً وأكبرهم عدداً، فهم منتشرون في العراق وسوريا ونجد، وهم لا يزالون يفتخرون بالملك عبدالعزيز، كما أن الملك عبدالعزيز يكرم الوافدين عليه منهم ولاسيما من كان من المساليخ، وعنزة من ربيعة.

في سنة ٨٥٠هـ [١] قدم ربيعة بن مانع من بلدهم القديم المسمى (بالدرعية) قرب القطيف، على ابن درع صاحب حِجْر والجَزْعة قرب الرياض وكان من عشيرته، فأعطاه ابن درع المُلَيْبِيد وغصيبَة المعروفين في الدرعية، فنزل هنالك وعمَّرهما هو وبنوه من بعده واتسع في العمارة، وولد لمانع ربيعة وصار له شهرة واتسع ملكه، ثم موسى وصار أشهر من أبيه، وبعد موسى ابنه إبراهيم؛ وإبراهيم هذا جدّ مُقْرِن، وسعود جد عائلة السعود.

قبل سنة ١١٥٠هـ (١٧٣٧)، وهي السنة التي وفد فيها الشيخ محمد عبدالوهاب المصلح الكبير على محمد بن سعود لم يكن لآل سعود شأن كبير في نجد، ولم يكن لم تأثير يذكر في شئون الجزيرة العربية ، بل كان شأنهم شأن غيرهم من شيوخ المقاطعات النجدية، وكانت الجزيرة العربية مقسمة إلى مناطق عدة، لكل منطقة أمير يمتد أو يقصر نفوذه حسب كفاءته الشخصية وهمته وقوته، والأمراء البارزون في ذلك أشراف الحجاز: بنو خالد حكام الإحساء، وما والاها، من المنطقة الشرقية على خليج فارس، وآل مُعمَّر في العُيينَة، والسعدون في العراق، وإمام صنعاء في اليمن، والسادة في نجران، والبوسعيد في مسقط وعمان. وبعد أن تعاهد الأمير محمد بن سعود مع محمد بن عبد الوهاب على

(١) انظر ابن بشر وبيكرت.

تظهير جـزيرة العرب من البدع والخرافـات ونشر كلمة التوحـيد، دخلت نجد أو بالأحرى الدرعية مـع سائر الإمارات الأخرى في حرب دينية دامـية، كان النصر فيها لجيوش التوحيد ودعاة الإصلاح.

وربما كانت سنة ١١٧٨هـ -١٧٦٥م أشـد السنين على محمـد بن سعود فـقد تحالف فيها حاكم الإحساء عَرعر الخالدي وحاكم نجران السيد حسن بن هبة ا ، وتواعدا عل يالزحف على الدرعية للقضاء على مهد الدعوة الدينية وخضد شوكة دعاتها، وقـد زادت هموم محمد بن سـعود عندما رأى ولده وجيـشه ينكسر في الحاير بين الخَرْج والرياض، هذا وعَوْعر ومن معه من الجنود لم يصل بعـد، غير أن الشيخ محـمد بن عبدالوهاب شدد مـن عزيمة محمد بن سـعود وذكره بما وقع للنبي في غـزوة أحد، كـما أن زوجة مـحمـد بن سعـود وكانت من الصـادقات المخلصات للدعوة؛ كـان لها أثر لاينكر في زوجها، وقد تمكن محـمد بن سعود والشيخ مـحمد ابن عـبدالوهاب من الصلح مع صاحب نجـران وإطلاق ما تحت أيديهم من أسرى ، ثم رجع صـاحب نجران قبل أن تصـل جنود بني خالد، ولذا فإن جمـوع بني خالد ومن التف حولهم من عشـائر العجمان قد رجـعت بعد ما وصلت قرب الدرعية.

في سنة ١١٧٩هـ -١٧٦٦م توفى الإمـام محـمد بن سـعود مـؤسس دولة آل سعود ومـؤيد الشيخ محمد بن عـبدالوهاب في دعوته؛ وتولى الأمر بعـده أكبر أولاده عبدالعزيـز(١)، فسار خلى خطة أبيه في التعاون مع الشـيخ على تجديد ما اندرس من معالم الـدين وإعلاء كلمة ا ، كما أنه واصل غـزواته عل يالإمارات والبلدان التي أظهرات التمرد ورفض الدعـوة الدينية الجديدة، ففي سنة ١٢٠٨هـ فتح الإحـساء جيش التـوحيد فقـضى على بني خالد، كـما أنه في سنة ١٢١٢هـ قضت هذه القـوات على جيش الشـريف غالب حول الخـرمة وهو أقـوى خصم

لهم، وقد قضت السياسة: أن تعقد هدنة بين الفريقين، ويفتح سبيل الحج للحجاج النجدين، فحج سعود لأو لمرة في سنة ١٢١٤هـ، كما أنه حج في السنة التي تلتها، غير أن الهدنة انقطعت ورمى كلا الجانبين الآخر بعدم احترامه لشروطها المتفق عليها، وعلى كل حال فإن السياسة التي وضعها المصلحون النجديون هي: نشر علم التوحيد في كل جزيرة العرب والقضاء على القوات المعارضة، حتى يسود الأمن سائر الجزير، وحتى تأمن الدعوة شر الانتقاض والمعارضة.

ففي سنة ١٢١٥هـ ساعد آل خليف على استرداد الزُّبارة والبحرين من سلطان مسقط، وشمل آل خليفة بحمايته، ولم تأت سنة ١٢١٧هـ حتى كان سعود في جوف الحجاز، وفي ١٧ محرم سنة ١٢١٨هـ دخل سعود مكة بجيوشه بعد ما أمن أهلها وبعد ما أظهر العلماء قبولهم للإصلاح الجديد، غير أن الشريف ما لبث أن استرد مكة بعد رجوع الأمير سعود إلى الدرعية.

وفاة الإمام عبدالعزيز

في ١٠ رجب سنة ١٢١٨هـ (١٨٠٤م) اغتال أحد الأجانب الإمام عبدالعزيز وهو في الصلاة، وقد اختلف الرواة في جنسيته، ويرجع أنه من شيعة كربلاء المتعصبين، أراد الانتقام للبلدة وما أصابها وما أصاب أهلها من الأمير سعود في غزوته عليها سنة ١٢١٦هـ من هدم قبة الحسين ومصادرة أموال المقيمين في تلك البلدة.

صفات الإمام عبدالعزيز

اشتهر الإمام عبدالعزيز بالتواضع والبعد عن زخارف الحياة، لا يبالي بما يلبس ولا بما يأكل، وكانت غايته الوحيدة هي مواصلة عمل أبيه العظيم من

القضاء على البدع والخرافات ونشر دعوة التوحيد، كان شديداً في الحق وتنفيذ أوامر الشريعة الإسلامية لا يبالي بمن ينفذ عليه الحكم، فمرضاة ا عنده مقدمة على كل اعتبار.

وكان قاسياً على قطاع الطرق والعابثين بالأمن من البادية، لايكتفي بالتعزيز البدني. بل يضيف إليه غالباً شيئاً من المصادرة المالية. ومال البدوي هو الجمل والخيل والغنم؛ ولذا فقد ساد الأمن جميع الطرق والبلدان التي امتد نفوذه إليها.

سعود بن عبدالعزيز

بويع للأمير سعود بعد وفاة أبيه ١٢١٨هـ (١٨٠٤م) وكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد أخذ له البيعة بعد أبيه في سنة ١٢٠٢هـ؛ لأنه كان أكبر أبناء عبدالعزيز سناً وأشدهم بأساً وأنفذهم بصيرة وأكبرهم عقلاً وأكثرهم تفانياً في الدعوة إلى ا ، وقد كان في حياة أبيه هو القائد للجيش والفاتح لأكثر البلدان التي دانت لهم.

وقد استمر حكمه من سنة ١٢١٨ إلى ١٢٢٩هـ فتح فيها الحجاز كله، كما أنه واصل زحفه في الشمال إلى ضواحي دمشق، فدانت له بادية الشام والعراق، كما امتدت فتوحاته جنوباً إلى رأس الخيمة في عمان وزَبيد في اليمن.

وقد بلغت الدولة في أيامه أوجها وغايتها، إلا أن أغلاطه السياسية والإدارية أوقعته في مشاكل مع الأتراك والمصريين وشدته المتناهية صرفت القلوب عنه وجعلت الناس ينتهزون الفرص للانتقاض عليه.

كان سعود من أحسن الرجال صورة وجلالاً ، ورث عن عائلته جمال

التقـاطيع ووسامة الوجـه، وقد كان يرخى لحـيته أكثـر مما اعتاده العـرب، وكان العرب حـتى خصومه يمتـدحون شجاعـته ومهـارته الحربية، وكان عـالماً بأصول الدين والفـقه والحـديث، حيث درس ذلك عـلى جده لأمـه الشيخ مـحمـد بن عبدالوهاب.

وسعود لم يأذن قط لأولاده أن يتدخلوا في شـئون الدولة، بل حصر ذلك في نفسه وفي ولده الأكبر عبدا .

وكان يسكن هو وعائلته في بناء كبير خارج الدرعية، كان بناه أبوه على سفح الوادي، وكـان كل أولاده وعائلاتهـم، وكل إخوته وعـائلتـهم يسكنون في هذا البناء كل له جناح خاص به وبعائلته.

وفي هذا البناء كـان سعود يسـتقبل مـشايخ القبـائل ويمد لهم المواثد، وينزل الكبار منهم فيـه. أما الأشخاص الثانويون فإنهم كـانوا ينزلون في منازل الدرعية وترسل إليـهم التعـيينات والـعلوف لدوابهم. وقصـر سعـود كان دائمـاً غاصـاً بالضيوف.

وكان مـجلس سعود مـفتوح الأبواب للجـميع وكـان من عادته أن يستـقبل الزائرين في الصباح الباكر. وبعد الظهر مابين الساعة الثالثة والسادسة، وكان من عـادته بعـد أن يتناول طعـام العـشـاء أن يجـلس بين قـومـه وزائريه ويتلو أحـد العماء(١) شـيئاً من القرآن وتفسيـره أو من أحاديث النبي، وكثيراً ما كـان سعود نفسه يتـولى تفسير مـا يصعب تفسيـره على السامع، وكان دائماً يقـول في نهاية كلامه« وا أعلم».

وكان من طباع سعود أن تأخذه الحدة والانفـعال عندما يتبين أن أحد الأعراب خدعه أو غشه، فيتناول عصاه ويهوى بها بنفسه عليه، ولكنه كان يعود إلى نفسه

بعد قليل ويستغفر ا ، وقد أصدر أمره لمن يكون حوله وقت غضبه أن يحولوا بينه وبين ضرب أي أحد من الناس، وقد كان دائماً يحمد لهم هذا التدخل بعد أن تهدأ ثائرته.

ولم يكن سعود ممن يحفل بالألقاب، فكان الناس ينادونه باسمه أو بيا أبا عبدا أو يا أبا الشوارب، كما كان هو بدوره لا يسمي الناس إلا بأسماءهم منجردة عن الألقاب.

وكان سعود في ملبسه مثل باقي الشعب لا يتميز عنهم بشيء ، غير أنه كان أنقاً في ملبسه ويحب التعطر دائماً.

وكانت مصاريف سعود في الغالب على الضيوف وعلى الخيول، فإنه يقال إنه كان لديه ما لا يقل عن ألفي فرس، وكان من هذا العدد حوالي ٣٠٠ أو ٤٠٠ دائماً في الدرعية، والباقي في الإحساء حيث المرعى الجيد، فكانت أكرم جياد بلاد العرب عنده، إما أنه يكون قد أخذها من أربابها عقاباً لهم على مخالفة ارتكبوها أو دفعاً لغرامة استحقت عليهم أو أنه اشتراها من أصحابها لماله الخاص، ويقال إنه كان لا يتأخر أن يدفع خمسمائة أو ستمائة جنيه ذهباً ثمناً لفرس.

وأباح سعود أن يكون لكل ولد من أولاده حرس خيالة م ١٠٠-١٥٠ فارساً أما عبدا فكان له وقت حياة أبيه أكثر من ثلثمائة فارس تحت أمره وفي خدمته.

يضاف إلى هذا العدد كثير من النوق الأصيلة السريعة، حيث كان لدى سعود أحسن وأجود أصنافها في بلاد العرب.

وكان عدد الذين يتناولون الطعام يومياً في قصره يتراوح ما بين الأربعمائة

(١) لا تزال متبعة في العائلة السعودية إلى وقتنا هذا.

والخمسمائة شخص: منهم خدمه وحاشيته والأضياف. وكانت أصناف الطعام هي: الأرز والبرغل والتمر واللحم، وكان سعود يأذن لأولاده الكبار ولكبار المشايخ أن يتناولوا الطعام على مائدته الخاصة.

ولم يحتفل سعود في قصره بأي عيد من الأعياد كما يحتفل به في الأمصار، وكان يقول : إن هذه العادة لم تكن موجودة في صدر الإسلام.

والنظام الذي أوجده سعود[1] من إلقاء مسئولية الجرائم التي تقع في منطقة على شيخ القبيلة الذي تقع هذه المنطقة تحت نفوذه قد جعل الأمن يسود كل جزيرة العرب تقريباً، وأفرح قلوب الذين كانوا معرضين للغارات والنهب والكسان سواء في نجد أو الحجاز أو اليمن قد استراحوا إلى نظام الحكومة السعودية. ولا سيما إذا قورنت بحالة الفوضى القديمة، وأقبل الأهالي على الزراعة لأنهم أمنوا شر القبائل التي تهدد محصولاتهم.

كان سعود مشهوراً بالقسوة على المجامين. سمعت مراراً من جلالة الملك أنه حبس مرة بعض شيوخ مفطَير، فجاء بعض كبارهم للاستشفاع لهم وأنس منهم روح الاعتزاز ، فأمر بقطع رؤوس المسجونين، وأحضر رؤوسهم على مائدة قدمت لبني عمهم الذين جاءوا للاستشفاع فيهم، ثم أمرهم بالأكل من المائدة!!

وقد قص هذه الحكاية جلالة الملك عبدالعزيز على شيوخ مطير الذين جاءوا للاستشفاع في فيصل الدويش، ولكن جلالة الملك عبدالعزز لم تعرف عنه قسوة من هذا النوع، غير أن سعوداً وإن عرف بالشد في معاقبته لمن يتجاوز حدود الشرع، فإنه كان كذلك مشهوراً بوفائه لأصدقائه المخلصين معه، فأي شيخ يخلص الخدمة لسعود يمكنه أن يعتمد عليه في جميع الملمات والشدائد.

(١) وهذه السياسة التي اتبعها الملك عبدالعزيز في سياسته الداخلية.

وكانت ولا تزال أشد عقوبة يمكن أن تنزل بمجرم أن تحلق لحيته ويطاف به في الطرق، والعربي يفضل الموت على حلق اللحية.

فتح الحجاز

لقد فتح سعود الحجاز في أوائل سنة ١٢١٨هـ في أيام والده، وعين الشريف عبدالمعين أمير على مكة من قبله، ولكن الشريف غالباً تمكن من التغلب على القوة التي وضعت في مكة واستردها منهم ثانية، ثم اتمرت الحربسجالا بين الفريقين حتى تمكن من الاستيلاء على الحجاز مرة أخرى في سنة ١٢٢٠هـ. على أن يبقى الشريف غالب في إمارة مكة من قبل سعود، وأمر الشريف غالباً بهدم القبور في جدة، وأمر أهل جدة ومكة بالإقلاع عن شرب الدخان ومنع بيعه في الأسواق ، وأمر بمنع المنكرات والمجاهرة بها، وترك لبس الحرير والذهب وإبطال المكوس والمظالم، ومصادرات الناس في أموالهم. وعاهده الشريف غالب على ترك ذلك كله واتباع ما أمر ا به في كتابه العزيز: من إخلاص التوحيد وحده واتباع سنة الرسول صلى ا عليه وسلم وما كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والأئمة، وترك ماحدث في الناس من الالتجاء إلى غير ا من المخلوقين الأحياء والأموات في الشدائد، وما أحدثوه من بناء القباب والزخارف وتقبيل الأعتاب، إلى غير ذلك مما وجد وحدث وجعل ديناً والدين منه براء، كلما أمر الناس أن يبادروا إلى الصلاة حين سماع الأذان، وألا يصلي في الحرم إلا جماعة واحدة، كما أمر العلماء أن يقرأوا الرسائل التي وضعها علماء الدرعية، ولقد استمر حكمهم للحجاز من سنة ١٢٢٠ إلى ١٢٢٨هـ، وكان سعود وأهل نجد يحجون في كل سنة، ونفذ هذا النظام في المدينة أيضاً وسائر البلدان الحجازية.

لقد خضع أهل الحجاز وشريف مكة للحكم السعودي، وأصبحت مكة قطعة من الإمبراطورية السعودية، ونفذت أحكام الدين حسب الحركة الإصلاحية التي قام بهـا الشيخ محـمد بن عبـدالوهاب، ولكن كل هذا لم يكن إلا مسـايرة لقوة الفاتحين.

بعد الخلاف مع المصريين والأتراك

في سنة ١٢٢٠هـ قال الأميـر سعود لأميري الحج الشـامي والمصري: ما هذه العويدات التي تأتون بها وتعظمـونها، فأخبراه بأن هذه المحامل إشـارة لاجتماع الناس، وهي عادية قديمة، فقال لهم: لا تفـعلوا ذبلك بعد هذا العام، وإن أتيتم بها فإني أكسـرها، كذلك شرط عليهما أن لا يأتيـا بطبول أو زمور ، و في السنة التي بعدها أي سنة ١٢٢١هـ كتب الأمير سعـود إلى أمير الحج الشامي، وكان قد وصل قـرب المدينة: لا تدخل الحـجاز إلا على الشـرط الذي شـرطناه عليك في العام الماضي، فرجعوا تلك السنة من غير حج.

ويقول العلامـة ابن بشر في تاريخه حوادث سنة ١٢٢١هـ: إن سعـوداً حشد جيوشاً عظيـمة قرب المدينة وأمرهم أن يمنعوا الحجـاج الآتين من الشام واستنبول ونواحيها، فرجع المحمل الشامي إلى وطنه ، وكان أميره عبدا باشا العظم؛ لأن سعوداً خشى من مكائد غالب وأخرج سسعود في تلك السنة من كان في مكة من الأتراك، كما أخرج منها كل من فيها من العساكر التركية، وبعد حجه تلك السنة زار المدينة المنورة فقوى حاميتها وأجلى من المدينة كل من يحاذر منه.

قال العلامة الجبـرتي المؤرخ المصري: وفي سنة ١٢٢٣هـ انقطع الحج الشامي والمصري مـتعللين بمنع الوهابي الـناس الحج ، وليس الأمر كذلك، فـإنه لم يمنع أحـداً أتى إلى الحج على الطريقـة المشـروعـة، وإنما منع من يأتي بالبـدع التي لا

يجيـزها الشرع: مـثل المحمل والطبل والزمـر، وقد حج طائفة من المـغاربة فلم يتعرض لهم بسوء .

أما مارواه السيد دحلان من حـرق سعود للمحمل المصري في سنة ١٢٢١هـ وأمره أن ينادي: لا يأتي إلـى الحرمين بعد هذا العـام من يكون حليق الذقن، فلم أجد فيمـا كتبه النجديون ما يؤيده أو ينفـيه، والذي يظهر لنا من هذه الروايات أن سعوداً لم يقـبل دخول المحمل لأنه بدعة، كـما أنه لم يقبل دخول العـساكر التي تصاحب المحـمل خشية أن تحـدث حدثاً في الحجاز، وهو بعـد ليس مطمئناً ولا يأمن جانب الشريف غالب فكبـر على الأتراك والمصرين هذا الأمر الذي اعتادوه مد طويلة.

ولقد سمعت منن بعض شيوخ نجد وسمعت هذه الرواية أيضاً من جلالة الملك انتقاداً لسيـاسة سعود: إنه في الوقت الذي غاضب فيـه الأتراك ورد حجاجهم، وكان فـيه أحد بنات أو شـقيـقات السلطان التركي، كـان يتهـادى مع شاه إيران ويتقرب منه، كماأنه انتقده أيضاً في قبول نصائح غالب التي لم تكن تنطوي على الإخلاص، بل كـانت تنطوي على اسـتثارة الـناس ضد الحكم السـعودي، وإن الشيخ عـبدالرحمن بن حـسن قد نصح سعوداً بعـدم الإصغاء لنصـائح الشريف غالب، كما نصحه أيضاً بالاعتدال في معاملة الأتراك والمصريين، غير أن سعوداً كما قدمنا كان شديداً، كما أنه كان شديد التعصب لرأيه.

أما أهل الحـجاز فقد كـرهوا الحكم السعودي لأنه قطع عنهم الحـجاج وحال بينهم وبين ما كـان يردهم من الصدقات؛ ولذا فـقد هاجر كـثير منهم إلى مـصر واستنبول وشكوا للسلطان ولمحـمد علي باشا ما أصابهم من الشـدة والضيق بعد الاحتلال الجديد وانقطاع ما كان مرتباً لهم من الإعانات. أما الشريف غالب فإنه

لم يقدم خضوعه للأمير سعود ولم يبـايعه على الطاعة اعتقاداً منه أو إخلاصاً له، بل لأنه غلب على أمـره ، ولذا فإنه مـا فتئ يكاتب مـحمـد على وسلطان تركـيا يستنجدهما على خلاص الحرمين الشريفين.

وفي سنة ١٢٢٢هـ صدر الأمر من السـلطان سليم لمحمد علي بتوليتـه الحجاز ومحاربته الوهابيين. غـير أن محمد علي لم يكن يستطيع تنفـيذ الأمر فوراً؛ لأنه لم يستقر أمره بعد في مصر ولا يزال يخشى من نفوذ المماليك.

وفس سنة ١٢٢٦هـ بدأت الحملات العسكرية في مصر فاحتلت ينبع في السنة نفسـها، وبالرغم من انكسار طوسـون في الصفراء والقـضاء على الحملة قـضاء تاما، فإن محـمد علي أعاد الكرة مرة أخرى وأخذ يستـيمل بالمال أمراء العربان، والشريف غالب يمهد له السبـيل حتى تمكن من استرداد مكة والمدينة والطائف في سن ١٢٢٨هـ.

ولقد سمعت من بعض كبار النجديين أن محمد علي حاول أن يعقد هدنة لمدة عشر سنوات بينه وبين سعود لأن المهمـة التي وكلت إليه وهي استرداد الحجاز قد انتـهت وليست هنالك فـائدة من الحرب ولا مطمع لمحـمد علي في نجـد، ولكن سعوداً أبى أن يعقد هدنة أو صلحاً مع محمد علي.

ويقول السيد دحلان : إن سعوداً نفسه هو الذي طلب الصلح من محمد علي وافتداء عثمان المضـايفي عامله على الطائف، ولكن مساعي الصلح لم تتم حيث اشتـرط محـمد علي دفع المـصاريف التي صـرفت على الحملة العـسكرية، ورد المأخوذ من الجواهر والأموال التي كانت بالحجرة النبوية أو ثمنها، وحضور سعود بنفسه بمقـابلة محمد علي، وسـواء صحت الرواية الأولى أو الثانية، فإن مـحمد علي وضع خطته للقضاء على الدولة الجديدة، وقد عـمل على استتباب الأمر له

obeikandl.com

في مكة فقبض على الشريف غـالب وأولاده وأرسلهم إلى مصر، وبذلك لم يبق له منازع في الحجاز .

وفاة الإمام سعود

وفي ربيع الثاني سنة ١٢٢٩هـ (١٨١٤) توفى الإمام سـعود بالدرعية على أثر حمى أصيب بها. ولئن شـاء القدر أن يشاهد سعود قبل مـوته إفلات الحجاز من يده مرة أخرى فـإن ذلك لم يفت في عضده ولم يكن له أثر يذكر فـي حالة مملكته الداخلية، وذلك بفضل شخصيته الجبارة والصلابة والشدة التي عرف بها.

وبموت سعود فـقدت نجد تلك الشخـصية المهيبـة، وبدأ التصدع يظهر شـيئاً فشيئاً في أيام ولده عبدا بن سعود.

عبدا بن سعود

بويع لعبد ا بع دوفاة أبيه، وقد كانت الحرب مـستمرة بين نجد ومحمد علي باشا، فلم يستطـع أن يمسك زمام المملكة بيد من حديد ، كمـا لم يستطع أن يدير الحرب بمهارة كما كان يديرها أبوه.

لقد افتتح عهـد عبدا بن سعود بخلافات عائلة بينه وبين عـمه عبدا ، الجد الأكبر لجلالة الملك عبدالعزيز ولم يكن هو البادئ بها، بل إن عمه رأى نفسه أحق بالإمامة لأنه ولد محمد بن سعود المؤسس الأول، ولكن هذا ليس بمبرر صحيح، فإن سعوداً تولى الإمامة في حياة أعمـامه، والحقيقة أن عبدا العَمّ أنس لين قناة عبدا ابن أخيه فأراد أن يخلعه، وليست هذه الحادثة بجديدة في بلاد العرب.

تغلب عبـدا على عمه، غير أن التـصدع قدبدأ وانحلال المملـكة قد ظهر ، وأخذ أعـداء الحكومة السعودية مـن النجديين يستفـيدون من الفرصـة، فكاتبوا

محمد على سراً، ومحمد على لا يترك هذه الفرصة تمر دون أن يستفيد منها.

كان عبدا في حياة أبيه يشار إليه بالحكمة والعقل والفطنة، غير أنه لم يكن له من الصفات الحربية مثل أبيه.

كان عبدا محبوباً من البادية للين عريكته، ولكنه كان قصير النظر في سياسته، كما أنه لم يكن له من قوة الإرادة ما يمكنه من القبض على زمام البادية، والبدو أسرع الناس إلى الانتفاض، فسقطت إمارة آل سعود على عهده ودخل إبراهيم باشا الدرعية وقبض على عبدا وأرسسله إلى الآستانة.

ويقول النجديون المحنكون: إن عبدا قد أخطأ كثيراً في إدارة الحرب وخالف طريقة والده في الحرب؛ فعبدا كان يعمد إلى منازلة المصريين، والمصريون أقوى منه آلات حربية وأقدر على إدارة الفنون الحربية. أما أبوه فكان يعمد إلى الحيلة الحصيفة فيناوش أعداءه بقوات صغيرة حتى ينهك قوتهم، ثم ينقض عليهم فيقضي عليهم، وهذا ما فعله في ضرب جيش طوسون باشا سنة ١٢٢٦هـ، وفي تربة سن ١٢٢٩هـ، ولذا فإن عبدا لما عمد إلى مقاتلة المصريين وجهاً لوجه انكسر في تربة سنة ١٢٣٠هـ، وتبع هذا الانكسار استيلاء المصريين على القسم الجنوبي من الحجاز.

ولقد خطَّأ النجديون أيضاً عبدا في قتاله مع المصريين في الدرعية، فالصحراء واسعة المصريون لا يستطيعون إبقاء حاميات في جميع الأراضي النجدية.

ولقد خطأ أيضاً (Rurchart) عبدا بن سعود في عقد الهدنة مع طوسون باشا سنة ١٢٣٠هـ، فإن هذه الهدنة كانت من أكبر الأسباب التي عملت على تقويض عرش آل سعود؛ لأن المصريين كانوا في أشد الظروف حرجاً: فقد كانت

ذخائرهم عليوشك النفـاد، كما أن الجلو قد فتك بالجنود والحيـوانات، فبالهدنة مكنهم من تجـديد حملاتهم على الحـجاز، ولو أن عـبدا تابع القـتال لكان من المحقق القضاء على الحملة المصرية الصغيرة.

أسباب سقوط الدولة السعودية

١- كان الدولة مسـتندة إلى القوة العسكرية أكثـر من استنادها على القلوب، والدعوة الدينيـة لم تتمكن بعد مـن قلوب الناس؛ فقد كـانت الثورات تشب من وقت لآخر لطرح الحكم السـعودي لا سيـما في البلاد البـعيدة عن نجـد كعسـير وعمان؛ ولذا فقد وجد محمد علي باشا ونفوذه المجال واسعاً في جزيرة العرب.

٢- تحرش سعود بالأتراك والمصريين برشارة غالب ونصائحه، والأتراك أهل الخلافة ويـهمهم المحافظ على لقب (خـادم الحرمين الشريفين) فهل يصـبرو على عربي ينزع منهـم الحرمين الشريفين ويحـول دون حجهم؟ إن هذا أكـثر من ثورة ضدهم؛ لذلـك لم يكن لهم بد من إلقاء هذا الحـمل على محـمد علي باشـا بعد فشل (باشا) بغداد و (بـاشا) الشام في تأديب هذه الفئة. ووالي مصـر يهمه أيضاً بسط نفوذه فـي الحجاز؛ لأن ذلك يتـفق مع مطامعـه الواسعة ويشـهر اسـمه في العالم الإسلامي.

إني أعتقد لو أن سعوداً اقتـصر في الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حراً للأتراك والمصريـين، ولم يمس الناحية الحـساسـة في الترك، وهي السـيادة على الحجـاز ما اهتم الأتراك بأمره؛ فـقد مكثت جزيرة العـرب مدة طويلة ونار الفتن تأكل الأخضـر واليابس، بل لقد كان الحـجاج الأتراك والمصريين عـرضة للنهب وللقتل في كـل ناحية حلوا بهـا في الحجاز، وكـانوا يحتملـون هذا ويعدونه من الأعمال الطبيعية. وأي فـرق في نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف؟ الفريقان

من العرب وأفضلهم من يحتفظ بسيادة الأتراك ولو اسمياً مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحجاج وتوفير وسائل الراحة لهم.

رأى علماء نجد

أما بعض علماء القصيم فيحملون تبعة ما وقع على نجد من تخريب وتدمير على أيدي الحملة المصرية على آل الشيخ[1]؛ لأنهم كانوا المسيطرين على السياسة الموحين إلى الأمراء باتباعها، فهم الذين أملوا عليهم خطة الشدة والعداء العام لسائر الناس.

أما آل الشيخ فيدفعون هذه التهمة عنهم طبعاً بالطعن على هذا الصنف من العلماء، وبمالأة أهل القصيم لوالي مصر وترغيبهم إياه لغزو نجد وتمهيدهم السبيل لذلك، وهم ينسبون ما وقع عليهم من المحن إلى الذنوب والتقصير، وا قد يبتلي عباده المؤمنين بشتى المحن.

أثر الدولة السعودية في نجد

مهما قيل في الدعوة الدينية الإصلاحية، ومهما قيل في الطريقة التي اتبعت في نشر هذه الدعوة، فإن هذه الدعوة قد تركت في نجد أثراً عظيماً لا ينكر، وقضت قضاء تاماً على ما كان شائعاً في نجد من الخرافات، وما كان شائعاً من تعظيم القبور والنذر لها، والاعتقاد في بعض الأشجار، وأحيت معالم الشريعة بعد اندثارها، وجعلت الرجوع إليها في مختلف الشئون أساساً من أسس الحكم. أما أهل العلم والقضاة لا سيما آل الشيخ فإنهم فوق كل اعتبار، وأصبح مقروناً اسم آل الشيخ وآل سسعود بعقيدة التوحيد والدعوة الإصلاحية لا سيما في إقليم العارض. أما الجهات الشمالية: القصيم وجبل شمر، فهم أقل حماسة

(١) يطلق آل الشيخ على ذرية الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

من الجهات الجنوبية.

الدولة السعودية الثانية

بعد إبعاد عبدا بن سعود من نجد، وسفر إبراهيم باشا إلى مصر سنة ١٢٣٤هـ رجعت إلى نجد فوضاها القديمة، وحل الفساد وقطع الطرق محل النظام والأمن.

حانت الفرصة لآل سعود مرة ثانية ، ولكن من يقودهم؟ اختلف آل سعود فيم بينهم على الإمارة كما طمع غيرهم أيضاً.

طمع محمد بن مُشاري بن مُعَمَّر في الإمارة ؛ فانتقل من العيينة إلى الدرعية وأخذ يستميل الناس إليه، فدانت له العارض والوشم وسدير، غير أن أمر بن معمر لم يطل؛ فإن مشاري بن سعود وصل إلى الدرعية في جمادي سنة ١٢٣٥هـ وانتزع الأمر من ابن معمر بلا مقاومة تذكر وبايع مشاري ، غير أن ابن معمر قام ثانية فاسترد الإمارة وألقى القبض على مشاري. وهنا يقوم تركي بن عبدا فيثأر لابن عمه مشاري، فيقبض على ابن معمر وولده ويقتلهما جزاء تسليمهما مشاري للترك.

تركي بن عبدا

١٢٢٥-١٢٤٩هـ

هو تركي بن عبدا بن محمد بن سعود، وعبدا والد تركي ليس هو عبدا الذي أسره إبراهيم باشا وقتله الترك؛ كما توهم بعض الكتاب، ويعتبر تركي المذكور منشئ الدولة الثانية لآل سعود في سنة ١٢٣٥هـ، لأنه منذ هذه لاسنة اعتبر الزعيم الساعي لاسترداد إمارة آل سعود. لقد هرب تركي هذه السنة من

الرياض بعدحصار الأتراك له، ولكنه خرج من الرياض وهو رافع عَلم الثورة ضد أولئك الفاتحين؛ وقد استمر ينتقل من بلد إلى أخرى مرة مهاجماً وأخرى مدافعاً، ولسان حاله يقول ما قاله امرؤ القيس:

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول مُلكاً أو نموت فنعذرا

وقد تمكن بعد محاولات من استرداد الرياض التي جعلها مقراً له ومن إخضاع نجد كلها، وفي آخر سنة ١٢٤٩هـ دبر مشاري بن عبد الرحمن بن سعود للأمير تركي مؤامرة اغتياله فيها، وأعلن نفسه أميراً على نجد، غير أن فيصل بن تركي الذي كان في القطيف قت اغتيال أبيه بادر إلى الرجوع إلى الرياض ليثأر لأبيه من مشاري بعد أن استعد لذلك. وفي ١١ صفر سنة ١٢٥٠هـ دخل فيصل بن تركي الرياض وحاصر مشاري في قصره، ولم تمضي بضعة أيام حتى تسلق فيصل ورجاله القصر، وقتلوا مشاري ومن ساعده على تدبير المؤامرة لاغتيال أبيه، وأعلن فيصل نفسه إماما وحاكماً على نجد.

فيصل بن تركي

سنة ١٢٥٠-١٢٥٤هـ

ألقى القبض على الأمير فيصل فيمن ألقى القبض عليهم في الدرعية من آل سعود وآل الشيخ، وبقى في مصر من سنة ١٢٣٤-١٢٤٢هـ، حيث فرّ من مصر، ووفد على والده في تلك السنة، وشارك والده في كثير من غزواته وحملاته ضد المغتصبين تارة وضد بعض أمراء آل سعود الذين رأوا الفرصة سانحة للإمارة أيضاً.

كان فيصل من أعظم الأمراء همة وشجاعة، كما كان من أتقى آل سعود

وأكثرهم حمية وغيرة على الدين والقومية.

لم يمكّن مشاري بن عبدالرحمن بن سعود من الإمارة، وقد صعد إليها باغتيال تركي والد فيصل، بل ركب متن الخطر، وهل للإمارة في بلاد العرب غير طريق المخاطرة؟ فأسقطه بسرعة وقتله وقتل من عاونه. تسلم فيصل عرش الإمارة الشائك فلم يجد من كثير من الأمراء إخلاصاً وخضوعاً. أما بعضهم فيفضل الاستقلال حتى يتحكم في الناس ويتسع المجال لهواه ومطامعه، وبعضهم يخاف من بطش المصريين والأتراك، غير أن فيصلا كان كجده محمد بن سعو د ليناً لمن ينفعه اللين، شديداً على من لا يصلحه غير الشدة، شمر فيصل عن ساعد الجد حتى أخضع أكثر البلاد العربية ما عدا الحجاز طبعاً، وأعاد عهد النظام والأمن في البلاد العربية بعد أن سادت فيها الفوضى وانتشر الفساد.

لقد هال الأتراك ومحمد على أمر نجد مرة أخرى، وخوفهم أن يعود الأمر لآل سعود كما كان، فأرسلوا حملة عسكرية ومعها خالد بن سعود، فأصبحت الحرب أهلية بين آل سعود، غير أن أهل نجد لاسيما الجنوبيين كانوا يميلون إلى فيصل لأنه لم يستعِن بأحد من الأتراك، وصرحوا لخالد بأنه إذا كان يريد منهم الطاعة فهم مطيعون، أما إذا كان يريد الطاعة للأتراك فهم لايحبون الأترا ولايريدون الخضوع لهم. وقد استمرت الحرب الأهلية بين خالد، ومعه جنود محمد علي ومن تبعهم من النجديين، وبين فيصل بن تركي والنجديين الصميمين من جهة أخرى، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين؛ وأخيراً رأى ولاة الأمور- المصريين والأتراك- أن يضعوا آخر حد لفيصل بن تركي الذي يرمي إلى إعادة حكومة سعودية مستقلة لا تتأثر بالنفوذ التركي أو المصري، فوكلوا هذا إلى خورشيد باشا الذي أوفد إلى نجد سنة ١٢٥٤هـ بحملة عسكرية للقضاء على فيصل، ووصل خورشيد باشا إلى الرياض في رجب من السنة المذكورة، فانضم

إليه خالد بن سعود وساروا جميعاً إلى فيصل الذي كان في ذلك الوقت في الدَّلَم من إقليم الخرج، وبعد معارك دامية رأي فيصل أن ليس له قدرة على مقاومة المصريين، فاستسلم له فأرسله خورشد باشا مع أخيه جلوي وولديه عبدا ومحمد إلى مصر.

وقد بقى الإمام فيصل في مصر من سنة ١٢٥٤ إلى سنة ١٢٥٩هـ، كانت نجد تخوض فيها فتنة أهلية بين خالد بن سعود وبين عبدا بن ثِنَيَّان، الذي يريد استخلاص نجد من قوات الأتراك. استتب الأمر فيها لعبدا بن ثنيان؛ وهرب أخيراً خالد بن سعود من الرياض إلى الإحساء فالقطيف فالكويت فمكة حيث توفى بها.

فيصل

من سنة ١٢٥٩-١٢٨١هـ

تمكن الإمام فيصل بن تركي من الفرار من مصر مرة ثانية، ويقال: إنه تمكن من ذلك بمساعدة عباس باشا الأول؛ فإنه كان معجباً به وبعقله، فذابت قوة ابن ثنيان، وأسلم له سائر الرؤساء، وتمكن بعد مدة قصيرة من استعادة المملكة القديمة ما عدا الحجاز، وقد ساعده على ذلك أولاً انسحاب الجيوش المصرية من البلاد العربية، وزوال نفوذهم من تلك البلاد نتيجة لمعاهدة لندن سنة ١٨٤٠م، وثانياً مسلك الحكمة والتبصر الذي اتبعه الإمام فيصل مع الأتراك الذين اكتفوا بسيادتهم الإسمية على بلاد العرب، وبذلك عادت الطمأنينة إلى قلوب السكا، وشمل الأمن الطرق والبلاد التي بسط فيها فيصل سلطانه ونفوذه.

صفات فيصل ابن تركي

كان الإمـام فيـصل قصيـر القامـة، يميل إلى السمنة، مـتوقد الذكـاء، كثـير التواضع ، يميل إلـى العدل، شديداً على عـماله إذ رأى منهم انحـرافاً عن الخطة التي رسمها لهم، وكان في أخريات أيامه شديد العطف على الأيتام، بنى لهم في الرياض داراً خاصـة وكان يتـفقـدهم بنفسـه ويكرم مثواهـم ويواسيهم بكـلماته الرقيقة، وقد أخبرني المرحوم الشيخ عيسى بن علي شيخ البحرين أنه مر بالرياض في حجه سنة ١٢٧٨هـ - سنة ١٨٦١م فرأى الإمام فيصلاً يبزور دار الأيتام. ورآه مرة يبكي حينما قال له أحد المتخـاصمين : خف ا يا محفوظ. وتمتعت نجد في أيامه بسعادة ورخاء عظيمين.

وقد زار الرياض الرحـالة «بلجريف» ، فـوصف بلاط فيصل ومـا يسوده من الجاسوسية والإشاعات كما وصف الإمـام فيصلا بالضعف في آخر أيامه وسيادة عبدا ولده في خارج الـقصر، ومحبوب - عتـيق تركي والد فيصل- في داخل القصر، كـما وصف سلطة الشيخ عبداللطيف حـفيد الشيخ محمـد عبدالوهاب وأنها تأتي بعد فيصل مباشرة، وذكر أيضاً المنافسة بين عبدا بن فيصل وسعود بن فيصل حتى اضطر فيصل إلى تعيين ولده سعـود أميراً على اليمامة والخرج؛ دفعاً للاحـتكاك والمنافرة بـين الولدين ، وإن أهل الدين المتعـصـبين يرون في عبـدا الزعيم، كما أن فريق المعتدلين المتسامحين يرون في سعود الزعيم البصير العاقل.

إن فيـصلاً وأكثـر أهل نجد يكرهون الأجـانب من كل قلوبهم ويسيـئون بهم الظنون، وهم لايلامون على هذا فقد ذاقوا من المصريين والأتراك ومن جيوشهم الأمرَّين، وقد ذاق فيصل نفسه الشيء الكثير منهم في الحبس والإبعاد؛ ولذا فإنه يرصد العيون على كل أجنبي قادم ولايـترك له المجال للإقامة في الرياض، ولكنه

في الوقت نفسه كان واسع الصدر مع المسلمين غير النجديين الذين فضلوا الإقامة في بلاده، حيث وجدوها وطناً صالحاً لتعاليم الإسلام الصحيحة كما ذكر بلجريف نفسه إكرامهم لبعض الهنود؛ ولهذا السبب لم يجد بلجريف صدراً واسعاً لإقامته، ووجد العيون تبث حوله.

وقد نشطت الدعوة النجدية في أيام الإمام فيصل بعدما أصيبت بالجمود في أيام حملات المصريين، غير أن هذه الدعوة سواء كانت سلمية أو حربية لم تخرج عن دائرة نجد والاحساء وعمان وقطر وعسير. أما الحجاز والعراق وسوريا فلم يشأ فيصل أن يدخل معها في نزاع جديد؛ لزنه رأي سلامته وسلامة بلاده في حفظ صلات المودة مع الأتراك.

واعتراف الإمام بسيادة الأتراك الإسمية لم يمنعه سنة ١٨٦٢م من مفاوضة بيلي المقيم السياسي في بوشهر باسم الحكومة البريطانية لتوطيد صلات المودة والصداقة بين البلدين .

أما المملكة السعودية في أيام فيصل فقد كانت حدودها حسب وصف بيلي[١] من الشمال خط يمتد من جوف العامر إلى قرب الكويت مباشرة عند نهايتها الشرقية، ومن الجنوب تحد نجد بالربع الخالي أو الصحراء الكبرى، ومن وادي الدواسر في نهايته الغربية إلى نقطة غير معينة في الصحراء في اتجاه الخليج العربي، ومن الشرق تنحدر حدود نجد إلى الخليج العربي إلى الكويت في طرفها الشمالي فنازلاً إلى أبي ظبي، وبعد أن يمر خط الحدود في الداخل قليلاً حتى يصل إلى البريمي ينحني خط الحدود نحو الجنوب الشرقي ويمتد وراء تلال مسقط وعمان، ومن الغرب خط يمتد تقريباً من الشمال والجنوب بين الحجاز من جهة، ووادي الدواسر من جهة أخرى بحيث يقع وادي الدواسر في نهاية الطرف

الجنوبي لهذه الحدود . فهذه الجهات كان سكانها ورؤساؤها يخضعون فعلا للإمام فيصل. وهنالك جهات أخرى كان يكتفي منها الإمام فيصل بضريبة سنوية علامة على الخضوع، فأمير البحرين كان يدفع أربعة آلاف ريال، وسلطان مسقط ستة آلاف، ورئيس ساحل عمان من رأس الخيمة إلى أبي ظبي ١٢ ألف ريال.

وفاة الإمام فيصل

في سنة ١٢٨٢هـ (١٨٦٦م) توفى الإمام فيصل ففقدت نجد بموته شخصية عظيمة كان لها أثرها في جمع الكلمة ، تلك الشخصية الحكيمة التي كان لها الفضل في إحياء النظام والقضاء على الفوضى وسيادة الأمن والقانون.

وبموت الإمام فيصل أوجد التنافس بين ولديه عبدا وسعود سبيلاً لأعدائهما، فاستفادوا من مقاتلة الأخوين، حتى انتهى الأمر أخيراً بالقضاء على إمارة آل سعود مرة أخرى .

الحرب الأهلية بين عبدا وسعود

كان التنافر بين الأخوين معروفاً منذ أيام فيصل، ولكن الإمام فيصلاً أراد وضع حد لهذه المنافسة، فجعل ولاي العهد لولده الأكبر عبد ا وأطلق يده في كثير من الأحوال، وكان عبد الله معروفاً بالكرم والتقوى، كما كان معروفاً بالتعصب والشدة، وهو يرى نفسه الوارث الشرعي للإمارة.

أما سعود فكانت شخصيته تختلف تمام الاختلاف عن شخصية أخيه عبدا : كان طويلا كأخواله بني خالد، وكان يميل إلى الاعتدال والتسامح، وهذه الصفات ربما كانت محبوبة لدى البدو أكثر. يقول عارفو عبدا بن سعود:

إن الرجل كان طيب القلب شجاعاً ، ولكنه أسند الأمور إلى غير أهلها،

وأطلق يد موظفيه، وبعضهم ليسوا من العائلات المعروفة فعاملوا رؤساء البلدان والقبائل بغير ما اعتادو في أيام في فيصل، من كرم الضافة والرعاية، ولاشيء أسوأ أثراً في نفس العربي من سوء المعاملة، كما لاشيء يحدث أحسن الأثر أكثر من الإكرام وطلاقة الوجه، ولقد سمعت كثيراً المرحوم الملك عبدالعزيز ينصح أولاده بعدم الركون إلى الخدم وبعض الموظفين، وتصفح الشئو ن العامة بأنفسهم، وكثيراً ما يضرب المثل بعمه عبدا بن فيصل وركونه إلى خدمة الذين أساءوا إلى الناس، فانصرت قلوب الناس عنه وانفضوا من حوله، وعلى كل حال فإن الخصومة بين الأخوين أخذت تزداد وأخذ كل فريق يجمع أنصاره حتى ينازل خصمه ويتغلب عليه، وقد بدأت أجزاء المملكة في الانحلال؛ فإن القسم اشمالي من نجد أصبح تحتْ نفوذ ال رشيد ولم تبق لآل سعود إلا سلطة اسمية، ولم يبق على ولاء مع آل سعود إلا الرياض والخرج وبعض الأقسام الجنوبية.

ترك سعود الرياض بعد وفاته أبيه وأخذ يبحث عن أنصار له؛ فوجد في العجمان أنصاراً أقوياء، والعجمان وبنو خالد كانوا أصحاب النفوذ في إقليم الإحساء، وقضى فيصل وأسلافه على نفوذهم في تلك البقاع، وهاهي الفرصة سانحة لاسترداد نفوذهم فهل يتركونها تفلت من أيديهم.

تحالف رَاكان بن حِثْلين زعيم العجمان مع ابن خليفة حاكم البحرين يساعدهم قبائل آل مرة، وتقدموا إلى الهفوف (عاصمة الإحساء)، وكان فيها أحمد السديري حاكماً من قبل عبدا بن فيصل فحاصروه فيها، وأخذ عبدا بمساعدة أخيه محمد بن فيصل يجمع القوات لضرب خصومه وفك حصار عامله؛ ولكن ليعد المسافات بين البلدان لم يتمكن عبدا من حشد عدد كبير من المحاربين؛ ولذلك أسرع بقوة صغيرة لنجدة البلد المحاصر، وقد بقى حاكم المدينة محاصراً عدة أسابيع، ولكن سلمها لهم لما هددوه بإتلاف البساتين، وقد

علم عبدا بسقوط الهفوف وهو في منتصف الطريق من الرياض إليها، فقرر الانتقام والأخذ بالثأر فوراً، فَقَسَّم قوته إلى عدة سرايا وأمرهم أن يجدوا السير من طرق مختلفة إلى الماء المسمى جُودة، حيث كانت تعسكر قوة العدو الرئيسية، وحيث تتقاتل كل هذه السرايا في ليلة معينة ليأخذوا العدو على غرة قبيل شروق الشمس، غير أن خصومه الذين كانوا يحتلون منازل المياه على مسافات واسعة بددوا هذه الفرق الصغيرة، وقتلوا أكثر من ألفي مقاتل من محاربي عبدا المخلصين.

أما سعود فإنه سارع وأتباعه لاحتلال الرياض عاصمة ملك عائلته، فدخلها في نهاية سنة ١٨٧٠م واستولى عليها وأقام نفسه حاكما عليها، وقد حاولت بعض المدن وأهمها البَرَّة أن تقاوم سعوداً ، ولكن عبدا هُزم هناك مرة أخرى، وبعدها لم يستطع الإقامة في بلاد أجداده، فحل خزائنه ونفائسه على مائة بعير وصار يتنقل من ناحية لأخرى لعله يجد نصيراً أو مساعداً، فتوجه أولاً إلى زامل السليم حاكم عنيزة، ولكن خوفه من بطش سعود جعله يوعز إلى عبدا بالرحيل عن بلاده، فتوجه عبدا إلى محمد بن الرشيد في حائل غير أنه لم يجد صدراً رحباً منه، فرحل إلى سلطان الدويش (والد فيصل الدويش المعروف) وعساف أبو ثُنَين رئيسي مطير وسبيع، وكانا يحنقان على حاكم الرياض سعود ويسعيان لإضعاف نفوذه.

وأراد عبدا أن يسعى من جهة أخرى لإضعاف نفوذ أخيه سعود. فأرسل عبدالعزيز بن بُطَيْن إلى مدحت باشا والي بغداد ليستمد منه المعونة ضد أخيه، فوجد مدحت باشا الفرصة سانحة للاستيلاء على الإحساء وسائر البلاد التي كانت خاضعة لتركيا قبل دولة آل سعود، فاستعان على غرضه هذا بناصر باشا السعدون رئيس قبيلة المُنْتَفِق، وعبدا بن صباح حاكم الكويت، وبمساعدة

هؤلاء وبني خالد أنصار عبدا احتلت القوة التركية الإحساء وأطلقوا عليها ولاية نجد.

وقد تحقق عبدا الذي كان يحسد أخاه سعوداً على ولاية الإحساء أنها قد خرجت من أيديهماجميعاً.

أما سعود فقد بدأت القلوب تنصرف عنه بسبب الفظائع التي ارتكبها أنصاره وأصهاره العجمان، فاجتمع أهل الرياض تحت قيادة عمه عبدا التي ارتكبها أنصاره وأصهاره العجمان، فاجتمع أهل الرياض تحت قيادة عمه عبدا بن تركي وطروده من الرياض سنة ١٨٧١م، فوجد عبدا بن فيصل المقيم في الإحساء القرصة سانحة، فترك الإحساء ودخل الرياض بدون مقاومة، ولكن سعوداً لم يهن عزمه، فجمع أنصاره وأصدقاءه الدواسر، ونازل أخاه عبدا في الجَزْعَة وضربه ضربة شديدة ودخل الرياض ظافراً.

أراد سعود أن يسترد الاحساء من الأتراك بعد أن أضاعها أخوه عبدا ، فرأى البدء في مفاوضات مع الأتراك لحل هذه المشكلة، فأرسل أخاه عبدالرحمن والد الملك عبدالعزيز إلى بغداد، فأقام عبد الرحمن بن فيصل في بغداد أربع سنوات دون أن يصل إلى نتيجة، وأنى له ذلك والأتراك يرنون ببصرهم إلى داخل الجزيرة؟

ترك عبدالرحمن بن فيصل بغداد سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) مصراً على الاستيلاء على الاحساء بالقوة، بعد أن فضلت المفاوضات السياسية، فنزل إلى بادية الاحساء واستحثها على قتال الترك، فاجتمع حوله العجمان فهاجموا الاحساء واستولوا عليها مادعا الكوت (القلعة) ولكن الأتراك بمساعدة بنى خالد هزموا عبدالرحمن والعجمان وطردوه من الأماكن التي احتلها، فرحل

عبدالرحمن إلى الرياض وأخبر أخاه سعوداً بما منى به من الفشل في محاولاته السياسية والحربية. ولم يكن حظ سعود نفسه بأسعد من حظ أخيه عبد الرحمن؛ فإن مُسْلَط بن رَبِيعان من رؤساء عتيبة حينما أنس الضعف من سعود وما منى به في الاحساء أخذ ينهب الجانب الغربي من الرياض، وأيراً حينما خرج سود لغزو عتيبة أحاط به أعداؤه في واد ضيق وقتلوا أكثر أنصاره، وجرح هو نفسه جرحا بليغاً، وقد نقله عبيده إلى الرياض فبقى بها مريضاً حتى مات في صيف سنة ١٢٩١هـ - (١٨٧٤م).

فبايع أهل الرياض أخاه عبد الرحمن بن فيصل إماماً لهم وحاكماً عليهم، ومضى على ذلك نحو سنة، غير أن عبدا بن فيصل عز عليه أن يرى أخاه الأصغر حاكماً في الرياض وهو طريد من عشيرة إلى أخرى، فدخل الرياض وأعلن نفسه إماماً وحاكماً عليها، فرأي أخوه عبدا الرحمن أن يضع حداً للفتن الداخلية، فتنازل عن الإمارة وبايع أخاه عليها، غير أن هذا الحكم لم يدم طويلاً، ؛ فإن خصومه وأعداءه من أبناء أخيه سعود تمكنوا من القبض عليه وحبسه سنة ١٨٨٧م، فأسرع محمد ابن رشيد حاكم حايل إلى مساعدته فضرب أعداءه وفك أسره وأخذه معه إلى حايل، وأقام في الرياض عاملاً من قبله بجانب عبدالرحمن بن فيصل، ثم ما لبث أن استقدم عبدالرحمن إلى حايل ليقيم من أخيه عبدا .

ومن ذلك الوقت أخذ نجم آل سعود في الأفول، وأصبحت الكلمة العليا في نجد لآل رشيد عمال السعود بالأمس، فأخذوا يبسطون نفوذهم على سائر الأنحاء النجدية. وشخصية محمد بن رشيد زعيم الرشيد قد ساعدت على ذلك أتم مساعدة، فقد اشتهر الرجل بالكرم ولين الجانب وكبر العقل وحبه للسلم، فدانت له العشائر كلها راضية أو مكرهة.

وقد رأى أن يملك قلوب أهل الجنوب فأذن في سنة ١٨٩٠م لعبدا بن فيصل بسكنى الرياض بالنظر إلى تقدمه في السن واشتداد المرضى عليه، وأذن لأخيه عبدالرحمن أن يصحبه وأن يسكن الرياض أيضاً، غير أن المنية لم تمهل عبدا ابن فيصل ، فمات بعد وصوله إلى الرياض بيوم واحد.

أما الإمام عبد الرحمن فقد كبر عليه أن يعيش في الرياض بلد آبائه وأجداده بعيداً عن النفوذ، يرى بعينه عامل ابن الرشيد وهو السيد المطاع، وكان عامل ابن الرشيد من جهة أخرى لايسير نحو آل سعود من الإكرام وحسن المعاملة بما ينسيهم تراثهم الزائل، فقام عبد الرحمن بن فيصل يشد أزره أهل الرياض والموالون لآل سعود، وقبضوا على عامل محمد بن الرشيد وبايعوا الإمام عبدالرحمن بالإمامة، فجهز محمد ابن الرشيد جيشاً حاصر به الرياض، ولكن لم يتمكن من دخولها فصالحه أهلها على أن يترك لعبدالرحمن الإمارة، وهم يطلقون عامله المدعو ابن سَبْهَان.

غير أن الأمير عبدالرحمن الذي أصبح تحت رحمة الرشيد والذي لم تتعد سلطته الرياض وما حولها كبر عليه أن يرى من كانوا بالزمس عمالاً من قبلهم لهم هذا النفوذ العظيم، وكذلك أهل القصيم كبر عليهم أن يروا حاكم حايل يتمتع بهذا السلطان، وليس أقدم منهم بيتاً ولا أكرم حسباً أو نسباً، ولكن القوة هي التي أملت عليهم الخضوع والاستسلام.

كانت فكرة أهل القصيم وفكرة الأمير عبدالرحمن ترمي إلى غرض واحد، فاتفقوا على مبايعته ومباغتة محمد الرشيد في حايل، وضربه ضربة تضعف سلطته وتقلل من نفوذه، ولكن محمد الرشيد لم تكن عينه غافلة عما يكيده له خصومه في الخلفاء، فإنه ما كاد يعلم بأن خصومه أخذوا يتأهبون، حتى باغتهم

بقواته في عنيـزة، وانقض عليهم فـمزقهم شـر ممزق. وقد قتل في هذه المعـركة زامل آل سليم حاكم عنيـزة وابن مِهَنَّا حاكم بريدة، وتـعرف هذه الواقعة بواقـعة المِلَيدة.

ومنذ طنة ١٨٩١م وهي السنة التي كسر فيها محـمد الرشيد خصومه، أصبح السيد المطاع في نجـد، وإن كان لايزال يعاني بعض الصعـاب في جمع الضرائب من الأقاليم الجنوبية.

أمـا عبـدالرحـمن بن فـيصـل فقـد نقل أهله من الرياض إلـى آل مرة قـرب الإحساء، ومكث لديهم نحو سـبعة أشهر، ثم هجم على الرياض فاسـتخلصها من الرشيد هي وسائر إقليم العارض، ولكن ابن الرشيد جـهز جيشاً عظيماً التقى بجيش عبدالرحمن بحريملا، فقضى عليـه القضاء الأخير، فأيقن عبدالرحمن أن الأمر فـوق مقدوره. فـترك نجداً إلى الإحسـاء فالقطيف فـالكويت؛ حيث ألقى عصا التسيار فيها منتهزا الفرصة وما تأتى به المقادير.

فأقـام ابن الرشيـد محمـد بن فيـصل أخا الإمام عـبدالرحـمن حاكـماً على الرياض، وقد كـان معتقـلاً في حايل، أما عبـد الرحمن الذي اختار الإقـامة في الكويت في سنة ١٣٠٩هـ (١٨٩٣م)، فأخذ يقيم العـراقيل في وجه ابن الرشيد. وأوغر صدر الأتراك عليه في بغداد والإحساء، كـما سساءت العلاقات بينه وبين حاكم الكويـت أيضاً ، فأخـذ ابن الرشيد في تجـهيـز حملة لفتح الكـويت المنفذ الطبيـعي لنجد سنة ١٣١٢هـ (١٨٩٨م)، ولكن جميع المحـاولات باءت بالفشل بعد أن كبدته خسائر فادحـة في المال والرجال، كما أنها وسعت هوة الخلاف بين الكويت وحايل.

الدور الثالث لآل سعود

لقد كتب القدر أن يرى عبد الرحمن بن فيصل مجد أبيه، ويرى مأساة الخلاف بين أخويه عبدا وسعود، تلك المأساة التي انتهت بانسحابه إلى الكويت يعيش فيها ضيفاً غريباً بعد أن كان أميراً مهيب الجانب، ولكن ا الذي أعد للصابرين أجرهم عوض عبدالرحمن بن فيصل خيراً، فأراه قبل موته راي ولده عبدالعزيز ترفرف لا على مملكة الإمام فيصل فحسب، بل على مملكة الحجاز أيضاً.

في آخر سنة ١٣١٤هـ (١٨٩٧م) اغتال الشيخ مبارك بن صباح أخويه الشيخ محمد والشيخ جراح لخلاف بينهما، وتبوأ عرش الكويت ثم استكتب أعيان الكويت عريضة يتهم فيها الشيخ يوسف بن ابراهيم بقتل أخويه، وأرسل هذه العريضة إلى والي البصرة فاطلع الشيخ يوسف بن ابراهيم على العريضة، وقد كان خارج الكويت في الصيد، فقرر ترك الكويت واتخذ الدَّوْرَة وهي من أملاكه الواسعة قرب مصب نهر شط العرب. وحاول مبارك في الوقت نفسه أن يغري الشيخ يوسف بالقدوم إلى الكويت أو أن يقبض الأتراك عليه فلم يفلح؛ لزن يوسف بن ابراهيم لم يأمن كيد مبارك .لجأ ولاد محمد الصباح وجراح إلى يوسف خضية من عمهم، وهو يعتبر كخال لهم، واستجاروا به وطلبوا منه الأخذ بثأر أبويهم، فبدأ الخلاف الخطر بين بيت آل إبراهيم يعاونه قسم من أهالي الكويت وبعض عائلة الصباح وبي الشيخ مبارك.

لقد حاول الشيخ يوسف أن يهجم على الكويت فيأخذها عنوة، فجهز حملة بحرية في بعض شواطئ إيران وملأ السفن بالمقاتلة، ولكن الحط خدم مبارك بوقوفه على المؤامرة قبل وصول السفن إلى الكويت بيوم واحد فرجعت الحملة

خائبة حينما رأت أن أمرها قد انكشف، وأخيراً لجأ الشيخ يوسف إلى الأتراك وابن الرشيد، وهنالك بذل الذهب وبين للجميع سهولة الاستيلاء على الكويت. وكانت نتيجة هذه المحاولات إعلان الحماية البريطانية على الكويت حينما أرسل الأتراك سفينة حربية صغيرة لنقل شيخ الكويت إلى استنبول؛ لزنه عُيِّن عضواً في مجلس الشورى، فلم يقف البريطانيون مكتوفي اليد فأعلنوا حمايتهم وهددوا السفينة بإطلاق النار عليهم إن لم تنسحب فانسحبت حالا، وقد أخبرني الشيخ مبارك والسيد رجب النقيب بقصة إعلان الحماية البريطانية على الكويت، وسنذكرها في مذكراتنا إن شاء ا .

وقد ازدادت العداوة بين حاكم الكويت وعبدالعزيز آل رشيد، ويوسف بن إبراهيم يذكي نار الخلاف، وفي سنة ١٣١٨هـ (يناير سنة ١٩٠١م)، وصلت إلى عبدالعزيز بن رشيد أسلحة كثيرة من الأتراك، فاستغلها في حملة ضد مبارك الذي كان يتقدم للغزو بمساعدة بعض العشائر التي تميل إلى ابن سعود، وبعض القبائل الجنوبية التي كانت ترغب في الخلاص من حكم الرشيد، فاصطدمت قوات الطرفين في الصَّرِيف - الماء المعروف في القصيم - وانقضت قوات ابن الرشيد على قوات ابن صباح ومزقتها شر ممزق، وفر مبارك إلى الكويت لا يلوى على شيء ، وقد اضطر عبدالعزيز إلى فك الحصار عن الرياض بعد ما بلغه هزيمة جيش الكويت، وقد أصيب أهل الكويت في هذه الواقعة بمصيبة لا يزالون يذكرونها، فلم يكد بيت من بيوت الكويت يخلو من مأتم، غير أن هذه الواقعة أثبتت أن عبدالعزيز الرشيد كان سفاحاً لا تعرف الرحمة إلى قلبه سبيلا؛ فإن أكثر من قتلوا لم يقتلوا في المعركة بل قتلوا بعد ما سلموا سلاحهم، وقد سقنا هذه القصة هنا وإن كانت ألصق بتاريخ الكويت لما لها من العلاقة الوثقية في تاريخ نجد الحديث.

عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود

في الوقت الذي هاجر فيه الأمير عبدالرحمن بن فيصل إلى الكويت كانت سن ولده عبدالعزيز (الملك عبدالعزيز) لا تزيد عن اثنتى عشرة سنة، فهو لم يشاهد مجد جده فيصل بن شاهد منحنة أبيه عبد الرحمن وعائلته.

لقد ذاق عبدالعزيز مرارة العيش في الكويت، ولم يحتمل أن يعيش تلك الحياة الهادئة ، وقد كبر على نفسه أن يعيش تحت جناح الشيخ مبارك بعد ما كانوا بالأمس سادة نجد، فقرر أن يخاطر : فإما أن يفوذ فيكون قد أدى واجبه نحو نفسه ونحو عائلته، وإما أن يموت فيستريح من عذاب الضمير.

بدأ الأمير عبدالعزيز مخاطراته بالحملة على الرياض لبعدها عن مركز قوة ابن الرشيد، ولما فيها وفي بلاد الجنوب من الأنصار والمخلصين لعائلة ال سعود.

خرج عبدالعزيز بن سعود من الكويت سنة ١٣١٩هـ - ١٩٠١م، ومعه أربعون رجلا كلهم من آل سعود والموالين لهم، وكانت خطة ابن سعود أولا ترمي إلى ضرب العشائر التابعة لابن الرشيد حتى يلتف حوله رؤساء البدو، وبالفعل فإنه نجح في ذلك حتى بلغ جيشه ألفاً وفرسانه نحو ٤٠٠، واتخذ هدفه نجداً الجنوبية.

شكا ابن الرشيد للدولة العثمانية من هذا العدو الصغير، وكتب لقاسم بن ثاني -أمير قطر - يحرضه عليه، فمنعت الدولة ابن السعود أن يُمَوَّن من الإحساء، وقطعت راتب والده ، وانفض البدو من حوله، ولم يبق حوله إلا الأربعون رجلاً الذين خرجوا من الكويت وتحالفوا معه على الحياة أو الموت.

كتب له الشيخ مبارك ووالده بالرجوع إلى إذ لا قبل له بمناوأة الدولة العثمانية

الملك عبدالعزيز في سنة ١٩٣٤م

obeikandl.com

وابن الرشيد، ولكن ابن سعود كان يحاول ملكا، فإما أن يصل إليه أو يموت.

أراد عبدالعزيز أن يضرب ضربته الأخيرة فسار بجماعته الأوفياء، وقد التف حولهم عشرون رجلا، فوصل إلى حدود الرياض أول الليل، فترك من قومه هنالك عشرين رجلا على مسافة ساعتين من الرياض، وتقدم بالأربعين الآخرين، فلما وصل الشمسيَّة - وهي بساتين خارج الرياض - ترك من جماعته ثلاثين على رأسهم أخوة محمد بن عبدالرحمن، ثم تسلق سور البلد، ولكنه ماذا يصنع في هذا الليل البهيم وكيف يقضي ليلته؟

طرق باب البيت المجاور لقصر عامل ابن الرشيد المدعو عجلان.

- من الطارق؟

عبدالعزيز بن سعود مجيباً:- رجل من خدم الأمير عجلان يريد زوجك لغرض.

المرأة - اذهب لا بارك الله فيك. ما جئت إلا لتبغى النساء، وهل يطرق باب الناس في الليل إلا فاسد؟

عبدالعزيز - لا وا يا خالة ما جئت لهذا، ولكني أخشى على زوجك من القتل غداً إذا لم يلب نداء الأمير حالا.

سمع الرجل التهديد فخرج ليرى جلبية الخبر، وكان ابن السعود يعرفه جيداً ويعرف نساءه، ومنهن من كرن في خدمة بيوت آل سعود، فلما خرج أمسكه وقال: اسكت ورلا قتلتك في الحال، ثم دخل البيت فلما رآه النساء صحن: عمنا عبدالعزيز، فقال : اسكتن ولا بأس عليكن، ثم جمعهن جميعاً في غرفة وأغلق عليهن الباب جميعاً،ثم تسلق الجدار إلى البيت المجاور للحصن، فوجد

اثنين نائمين فلفهما في فراشهما بهدوء، ثم أدخلهما في إحدى الغرف وأغلق عليهما الباب، ولما اطمأن باله أرسل إلى أخيه محمد من الخارج ومن معه فجاءوا إليه دون أن يشعر بهم أحد.

كان البيت المجاور للبيت الذي هو فيه أحد بيوت عجلان عامل ابن الرشيد، وكان عجلان يزوره نهاراً وأحياناً في الليل. فمشى عبدالعزيز ومعه عشرة من رجاله فدخلوا البيت ثم فتشوا غرفة واحدة واحدة ، فوجد اثنين نائمين على فراش واحد ظنهما ابن سعود عجلان وزوجته، فدنا منهما عبدالعزيز ليتحقق من شخصيتهما على ضوء سراج كان يحمله أحد الخدم، فوجدهما زوجة عجلان وأختها.

عرفت المرأة عبدالعزيز فسألته: أأنت عبدالعزيز؟ فأجابها نعم! أنا هو . . !

- من تبغي؟ وما مأربك هنا؟ فأجابها: أريد عجلان لا سواه، فقالت: بابني لاتغرر بنفسك، انج بنفسك في هذا الليل وإلا قتلوك.

عبدالعزيز - ما جئنا لنسمع منك نصيحة، ولكن نريد أن نعرف متى يخرة عجلان من القصر الداخلي.

زوجة عجلان - بعد شروق الشمس بساعة.

عبدالعزيز- هذا كل ما نريده ، وإنكن إذا لزمتن السكوت والسكون فلا بأس عليكن، وإلا فالموت لا محالة، ثم جمع النساء جميعاً في غرفة واحدة وأغلق عليهن الباب.

انتصف الليل وخيم السكون على البلد كأن لم يكن هنالك شيء، ثم ف يهذا السكون أخذوا يحكمون الرأي في تدبير الهجوم على قصر عجلان. انبثق الفجر

الملك عبد العزيز في عنفوان شبابه

obeikandl.com

وأخذت الشمس تشرق بنورها الساطع على البلد، وفتح باب القصر وأخرج العبيد الخيل، فدخل عبدالعزيز القصر وتبعه من رجاله خمسة عشر فقط وكمنوا في داخله، وبعد دقائق خرج عجلان ليرى الخيل كعادته، فصادفوه في الطريق فراعه منظرهم، فهم يريد الرجوع، فأدركه عبدالعزيز بطلقة لم تدرك منه مقتلا فتبعه عبدالعزيز ، وتصارع ابن سعود وعجلان، ابن السعود يريد القضاء على خصمه، وعجلان يحاول إدخال ابن السعود إلى الباب الداخلي. في هذه اللحظة أخذ رجال عجلان يطلقون النيران من نوافذ الحصن المشرفة على السوق، فقتلوا اثنين من رجال ابن سعود، وجرحوا أربعة وتراجع المهاجمون، ياله من خطر داهم!

هنا دخل عبدا بن جلوي (أمير الإحساء، وابن عم عبدالعزيز بن سعود) ووالد أمير المنطقة الشرقية الأمير سعود بن جلوي، وعدا وراء عجلان الذي أفلت من عبدالعزيز فرماه بطلقة أودت بحياته، وبعد ساعة تبادل رجال عبدالعزيز وحرس القصر النار، ثم سلم حرس القصر على أن يتركوا أحياء ظناً منهم أن عبدالعزيز معه من الجند مايكفي للقضاء عليهم، وما كاد النهار ينتصف حت يأذن المؤذن أن الحكم لله ثم لعبدالعزيز بن عبدالرحمن، وأن عجلان عامل ابن رشيد قل قتل فسمع الناس وأطاعوا.

إن هذه القصة التي تشبه قصص أبطال اليونان ترينا عظم الأخطار التي أحاطت بابن السعود، وهي تعطينا صورة من مخاطراته بحياته، وهل العظمة إلا ناحية من نواحي المخاطرة؟ وهل يمكن أن يكون الجبان عظيماً؟

وأخذ الأمير عبدالعزيز بعد دفتح الرياض يعمل للقضاء على مملكة ابن الرشيد، واسترداد ملك آبائه وأجداده، وقد مكث أكثر من عشرين سنة يجالد،

ويغالب الخصوم من النجديين والأشراف والأتراك، يضربهم حيناً ويلين حينما يرى السياسة واللين أنجح من الخصام والقتال.

فتم له في سنة ١٣٢٠هـ الاستيلاء على القسم الجنوبي من نجد (الخرج والأفلاق) وفي سنة ١٣٢١هـ تم له الاستيلاء على سدير والوشم والمحمل والقصيم، وقد تداخل الأتراك في الخسام بين ابن الرشيد وابن سعود، وكانوا دائماً في صف ابن الرشيد، وأعقب هذا التداخل معارك دموية بين ابن سعود من جهة وابن الرشيد وحلفائه الأتراك، وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين، ولكن انتهى الأمر بانكسار الأتراك وانسحابهم من نجد سنة ١٣٢٤هـ -١٩٠٦م.

وقد ضعف أمر آل الرشيد بقتل زعيمهم عبدالعزيز بن مِتْعَب سنة ١٣٢٤هـ (١٩٠٥)، واستراح ابن سعود بعض الراحة لأن آل الرشيد قد كفوه أمرهم بخلافاتهم الداخلية على الإمارة ، وسعى بعضهم لاغتيال البعض الآخر.

وربما كانت أشد السنين على الأمير عبدالعزيز هي سنة ١٣٢٨هـ -١٩٠٩م، فقد واجه ثلاث جبهات مرة واحدة: ابن الرشيد من جهة، وثورة أبناء عمه في الجنوب، وتقدم الشريف حسين إلى نجد وأسر بعد بن عبدالرحمن شقيقه، ولكن ابن سعود الذي لا يعرف قلبه الحور تمكن من التغلب على خصومه. استعمل السيف مع الثائرين وابن الرشيد ، والسياسة بعد ذلك مع الشريف حسين، ونجح في ذلك نجاحاً عظيما، وكانت هذه الحادثة هي أول احتكاك بين الشريف حسين وبين الأمير عبدالعزيز، استطاع منها أن يزن أمير نجد كياسة الأمير حسين السياسية ومبلغ أطماعه وطموحه.

وفي سنة ١٣٣٠هـ - ١٩١٣م رأي الأمير عبدالعزيز الدولة التركية آخذه في التصدع والانهيار، ورأي المطامع تكتنفها من كل ناحية، فانتهز فرصة خروجها

من حرب البلقـان منهوكة القوى، وانقـضّ على إقليم الاحساء واستـخلصه من النفـوذ التركي، وأعـاد إلى ذلك الإقليم الأمن والسكينـة بعد مـا كان مـسرحـاً لأطمـاع البدو، وبـاستـيـلائه على الإحسـاء نفـذ إلى الخليج العـربي، واتصل بالحكومة البريطانية بعد ذلك اتصالاً سيـاسياً مازال آخذاً بالتوثق والنمو حتى سنة ١٩٥٢م حيث اشتد الخلاف على منطقة البريمي، وفي ١٩٥٥م اضطرت الحكومة السعودية إلى استدعاء سفيرها بلندن احـتجاجاً على احتلال البريطانيين للبريمي، فوي سنة ١٩٥٦م قطعـت العلاقات السـياسيـة بين الحكومتين على أثر الاعـتداء الثلاثي على مصـر، ولا تزال الحالة على ماهي عليه حـتى الآن بالرغم من إعادة العلاقات السياسية مع الجمهورية العربية المتحدة. والمشكلة كان يعالجها السكرتير العام لـلأمم المتحدة مـستـر همر شـولد قبل حـادث الطائرة الذي أودى بحيـاته، ولاتزال نؤمل أن يتوصل الفريقان إلى حل عادل يعيـد إلى ذوي الحقوق حقوقهم واللاجئين إلى أوطانهم.